حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٩ (عدد إبريل – يونيه ٢٠٢١)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الشخصية ودلالاتها في رواية " ناقة صالحة " للروائي سعود السنعوسي

ختام الخولي*

*أستاذ مشارك– الجامعة الأمريكية– الكويت
Kalkhouli@auk.edu.kw

المستخلص

ترتكز الرواية على جملة من العناصر التي تتظافر وتتعاضد فيما بينها لإخراج عمل روائي له طابع خاص أراد الراوي عبره أن يعلن عن جملة من آرائه وانطباعاته، ويرسم لنا عالما واقعيا عاشه الأجداد وما زالت فئة غير قليلة تمارس هذه الحياة ذاتها. لذلك في هذه الرواية ارتكز المؤلف على الشخصيات التي تعكس صورة فنية وطبيعية وثقافة وأيديولوجية خاصة؛ إذ عرض لنا لوحات فنية عاش أبطالها في البادية في بدايات القرن العشرين في بادية الكويت وشعابها ونجد، وقد نفذ الكاتب إلى دواخل هذه الشخصيات وأخرج مكنونها من تراث وثقافة وسلوكيات منها الإيجابي ومنها السلبي، ولم تقتصر هذه الرواية على الشخصيات النمطية فقط؛ بل تعدتها إلى عالم النوق والجمال،وعرض الكاتب لنا حياتها وركز على شخصية الناقة وعرض لنا طباعها وتصرفاتها وغاص في دواخلها ليخرج لنا مكنونها وعواطفها ومشاعرها التي ماثلت شخصية الإنسان، ثم ربط بينها وبين بقية شخصيات الرواية بعلائق متشابكة ليكون عالما خاصا من تفاعلاتها ينمق به فضاء روايته. ولم يقتصر الكاتب على انتقاء شخصيات نصه الروائي بل تعداه إلى منح شخصياته أسماء ذات دلالات ورموز خدمت نصه وارتقت به وأثارت فكر قارئه.

وترتكز هذه الدراسة على تحليل الشخصيات ووصفها معتمدا على المنهج الوصفي التحليلي الذي يوائم هذا العمل. وسنركز في هذا العمل على الشخصيات الرئيسة والثانوية التي ساندتها، وكان لها الأثر الكبير في تفعيل الحدث الروائي ؛ لأن الشخصية هي العمود الفقري للرواية، وبغيابها لا يوجد نص. وستقدم هذه الدراسة العناوين الرئيسة التالية:

الشخصية ودلالتها:

الشخصيات الرئيسة:

أولا – ناقة صالحة ثانيا – صالحة ثالثا – دخيل

الشخصيات الثانوية:

أولا– صالح ثانيا– فالح ثالثا–أم دحّام رابعا– الولد

الخاتمة

وقد حاولت هذه الدراسة أن تستقصي معالم الشخصيات في جوانبها المختلفة، مركزة على أدوارها وأفعالها التي قامت فيها، ولذلك شكلت الشخصيات دلالات وإشارات مهمة استطاعت أن تكشف عن الأدوار التي قامت بها هذه الشخصيات، التي استطاعت أن تعكس الرؤى والمنطلقات التي انبنى عليها هذا العمل الروائي.

الكلمات المفتاحية: شخصية، ناقة، دلالة،صالحة

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢١.

الشخصية ودلالاتها في رواية " ناقة صالحة"

التَّمهيـــــد

الشخصية في الرواية:

عند معاينة دلالة الشخصية في العمل الروائي والكشف عن تمظهراتها يصادف الباحث عدة تعريفات،فالشخصية في المعجم الوسيط من مادة شخص وتعني" كل جسم له ارتفاع وظهور، وغلب في الإنسان. والشخص عند الفلاسفة : الذات . والشخصية التي تقود الفعل وتدفعه إلى الأمام في الأعمال الأدبية ويطلق عليها الشخصية" (١) وثمة باحثون يخلطون بين الشخص والشخصية " إذ إنَّ كلمة الشخص تصرف إلى الكائن الإنساني الذي يولد ويموت، والشخصية تصرف إلى الكائن الورقي " (٢)

إن الشخصية الروائية هي أساس بنية الرواية وهي " شخصيات فنية تسهم في بنية النص السردي ككلّ، كما أن فنيتها تسهم في جعل القارئ يشارك في فهم الشخصية الروائية من خلال أقوالها وأفعالها، مع مراعاة أن فهمه لهذه الشخصيات يمكن أن يتعدد بتعدد القراء، ومستويات قراءاتهم، واختلاف تحليلاتهم "(٣). والشخصيات الروائية يخلقها الكُتاب من مخزون ثقافتهم، أو من مخيلتهم، أوأنها تكون مُستقاه من الواقع الذي يعيشونه فهي عندهم " تشبه الأناس الحقيقيين ولكنها لا تشبههم كذلك"(٤)، فالروائي هو مصنع الشخصيات، يصنُعها ويغير فيها وينسقها ويبلورها حتى تصبح موائمة لبيئة المجتمع الذي تعيش فيه، وتكون نمطا من أنماطه، فلا يستغربها المتلقي ويتفاعل معها ويحبها ويكرهها وينفر منها، وغالبا ما يتأثر بها سلبا أو إيجابا. فالروائي يستغل إمكانيات شخصياته ليصل إلى فكر وقلب المتلقي ويلامس عواطفه، ليكوّن في مخيلته الصورة المنشودة التي ارتآها.

وللشخصية الروائية أشكال متعددة وأنماط حسب ما يريد الراوي فيقدمها للمتلقي منبسطة أو متغيرة، أو محورية أو نموذجية من خلال السرد مستعينا بالأساليب الفنية؛ التي يلجأ إليها الكاتب في تقديم شخصياته تاركا للقارئ التأقلم والتعايش معها في أزمنتها وأمكنتها، والحكم على تصرفاتها والتنبؤ بمصيرها. وفي بعض الأحيان يترك له القرار في وضع الحلول لنهاياتها عندما يترك العقدة لقارئه ليبت في أمرها. إذن نخلص إلى أنَّ العمل الروائي يتأسس على عناصر أساسية تعمل على بلورة العمل الروائي، وهذه العناصر هي الشخصيات والزمان والمكان والحبكة والعقدة، وكل ما سبق يكون مجتمعا مسبوكا بلغة سردية شعرية موائمة للحدث والشخصيات. ويعد عنصر الشخصيات هو المؤسس الأول لبنية الرواية فغيابه يلغي وجود العمل الروائي. إذن يبدو من ذلك أن الشخصية هي اللبنة الأولى لولادة أي عمل روائي.

لقد قدّم لنا سعود السنعوسي نصه الروائي عن طريق عدد من الشخصيات استقاها من الواقع أولا ومن مخيلته ثانيا، وقد حملت هذه الشخصيات على عاتقها الولوج إلى عالم القراء كي يتأقلموا معها ويحسوا بأحاسيسها، ويتألموا بآلامها، واللافت للنظر أن السنعوسي أدخل الناقة "وضحى" لتتربع على عرش البطولة جنبا إلى جنب مع بقية الشخوص.

-الشخصيات الرئيسة:

أولا ناقة صالحة" وضحى":

لقد تشكلت رواية " ناقة صالحة "من عدة شخوص أساسية ؛ نسجت خيوط الرواية وألهبت أحداثها وأزَّمت عقدتها، وأحْيَت أمكنتها وشغلت أزمنتها بتعاضد صفاتها وطباعها ومفاهيمها. ويعد سر تميز رواية ناقة صالحة أنّ الكاتب سعود السنعوسي وضع شخصياته في المكان والزمان المناسبين، فجعل البيئه موائمة لشخوصه شكلا ولغة ولبسا وتصرفا وعشقا وشعرا وعزفا على الربابة. فاستقى شخصياته من بيئة صحراوية قاسية؛ حيث الجفاف يعمّها، فشخصياتُه مُدغمة بالواقع فهذه الشخصيات عاشت في الكويت والجزيرة العربية المحيطة بها في أوائل القرن العشرين وتحديدا في عام ١٩٠١م. ومما يميز هذه الرواية أن السنعوسي جعل ناقة صالحة" وضحى " شخصية رئيسة ومحورية، وكانت شخصية موازية لشخصية "صالحة"، وفي بعض الأحيان جعل شخصية الناقة "وضحى" أكثر تأثيرا على المتلقي وعواطفه؛ وخصوصا أن الكاتب ركز على الناقة الخلوج وهي التي تفقد ابنها، أو يذبح حُوارها فتظل مدة تحن إليه ويخالجها الحزن، إذ يكون لها صوت عويل ونحيب يثير الأسى، وتعود إلى المكان الذي فقدته فيه فتبكي وتتألم من وجع الفقد والفراق. ولم يكتفِ السنعوسي بتقديم ناقة صالحة في روايته بطلا بل منحها اسم "وضحى" هذا الاسم المستوحى من البيئة البدوية، والناقة هي رمزللشخص العربي منذ الأزل، وكانت رمزا من رموزه التاريخية والاجتماعية، والقرآنية، والحياتية، وتراثه الشعري والنثري، فعند الحديث عن الناقة تتجلى صورة الإنسان العربي في حلّه وترحاله؛ إلى الدرجة التي أصبحت فيه الناقة شخصا مفعما بالمشاعر والأحاسيس، بل تجاوزت ذلك حين أصبحت فردا من أفراد العائلة؛ لها آلامها وأحزانها وكذلك أفراحها وعاداتها وطباعها. إذ يمكن القول بوجود ارتباط أزلي بين الناقة والعربي على مرّ مراحل حياته، فهذا المخلوق أنشأ ألفة بينه وبين مَن ينتمون إلى القفار والصحاري؛ حيث كانت الناقة سفينتهم وملاذهم وهي أنيستهم في حلكة الليالي الدّامسة الظلام في حِلّهم وترحالهم، أليفة الرجال والنساء والأطفال، وقد ارتبطت بهم حتى أصبحت جزءا من حياتهم الاجتماعية والثقافية، فتغنوا بها ووصفوها في معلقاتهم وأشعارهم.

لقد جعل الكاتب السنعوسي ناقة صالحة شخصية رئيسة تلعب دور البطولة في روايته بدءا من العنوان؛ ومن ثم في متن النص، فقد لعبت ناقة صالحة" وضحى" دورا محوريا في أحداث الرواية وحبكتها. فاختيار عنوان الرواية " ناقة صالحة" يعد إقرارا صريحا بأن الناقة هي بطلة هذه الرواية، وإضافة الدال ناقة إلى الدال "صالحة"؛ يفضي إلى ملكية هذه الناقة بأنها تعود إلى صالحة، فعتبة النص حددت ما سيؤول إليه متن النص من أحداث متنامية ستكون تحت هذين الاسمين ناقة وصالحة؛ إذ إن" متن الرواية يظل يشير إلى النص الأول نص العنوان فتقوم علاقة جدلية متبادلة بين النصين، نص العنوان ونص المتن إذ يشرع العنوان في ممارسة فاعليته في المتن الثاني ويسهم في تحديد مقاصد المتن، ويوحي لنا باحتمالات ورؤى تسهل علينا الولوج في عالم الرواية، ويمنح النص الأكبر قيمة دلالية باعتباره مختزلا لمحمولات العمل الكلي".[٥]

أنسنة الناقة:

إن أنسنة الحيوان في التراث الأدبي العربي ليس جديدا، فقد عرفه العرب منذ العصر الجاهلي فهذا عنترة بن شداد يؤنسن فرسه الأدهم بقوله:

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تســـربل بالـــدّم

فازور من وقع القنـــــا بلبانه وشـــكا إلـــيَّ بعبرة وتحمحم[٦]

وقول المثقب العبدي عن حواره مع ناقته وكشفه لوضعها النفسي :

إذا مـــــــا قمت أرحلها بليـــل تأوه آهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيني أهـــذا دينه أبدا وديـــني
أكـــــل الدهر حـــل وارتحال أما يبقي علي ولا يقيني [٧]

وقد عرفه العرب في القرآن الكريم من مثل قصة سيدنا سليمان مع النملة، كذلك عرفوه من خلال نتاجهم الأدبي في بلاد الرافدين فهم " يملكون أضخم إنتاج أدبي يتعلق بقصص الحيوان، ويستوي في هذا الأدب الذي نقله المؤلفون من الجاهلية في كتب الأمثال أو الذي وضعه أدباء الحضارة في بغداد والأمصار، أو ما ورد في الأدب التعليمي والذي ترجمه العرب إلى لغتهم، فاستوعبته اللغة العربية وأصبح جزءا منها. [٨] كذلك عرفوه في قصص الحيوان في كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، والخ.....

سلط السنعوسي الضوء على الناقة الخلوج، لأن القارئ يتعاطف معها بشكل عميق، عدا أن صفات الناقة الخلوج بحزنها وآلامها على فقد حوارها ترفع الناقة وتسمو بها إلى درجة الإنسانية يقول السنعوسي: " كان العويل ما زال يصدر من مربع قصيّ. نهضت جالسا في فراشي الصوفي على الأرض أنصت، لعلّي أبدد وجْس أحلامي. خرجت من الخيمة أتلفت صوب بادية المدينة. لا عواء ولا عويل. لا شيء ساعة الفجر إلا فرسي تدور حول نفسها في أفول الظلام، وساري مربوطا إلى وتد، ليس بعيدا عن الفرس يرغي، وصوتٌ يجيء من بعيد. نواح ناقة! نعم نُواح . . لا بُغام ولا رغاء. لا عواء ولا عويل. أنا أعرف هذا الصوت جيدا،"إنها ناقة خلوج: [٩]

في المشهد السابق يؤكد دخيل على معرفته الأكيدة بصوت الناقة الخلوج، فهو يؤكد ذلك باستخدام حرف التوكيد"إنّ"، والخبرة جعلته يميز هذا الصوت عن بعد كيلومترات، فسكون الكون والطبيعة الخالية من القوالب الإسمنتية أوصلت صوت هذه الناقة الخلوج إلى مسامعه التي تشربت هذا الصوت فبات مألوفا لديها، وبسبب خبرته المحنّكة، فقد ميزه عن الرّغاء والبُغام والعواء والعويل، وهذا إن دلَّ على شيء فهو يشي بأن دخيل ابن البادية وخبرته بهذه الأصوات مؤكدة وهذه الأصوات صديقة لمسامعه فقد سمعها ووعاها منذ أمدٍ بعيدٍ، فلولا خبرته ما فرق بين الخلوج وغيرها.

ويؤكد "دخيل"على هذه المعرفة فيقول:"ذلك الصوت يجرني إليَّ في زمن مضى. كم من خلوج مررْتُ بها في دياري، تجتث نياط قلب سامعها ببكائها وأدمعها تسح على الأرض". إن هذا الصوت قد مر عليه في الزمن الماضي، فأيقظ في نفسه الحنين إلى الأهل والناس الذين أحبوه وخصوصا أنه قد رحل عنهم منذ عامين. فقد تساءل في نفسه: "كيف للبهيمة أن تحنّ إلى حوارها في حين ألتحف صمتي عن حنيني إلى أهلي وناسي ومحبوبتي".[١٠] يتساءل دخيل ويستغرب من صبره على فراق الأحبة الذين هجرهم وابتعد عنهم، حين حمل قلبه العاشق الجريح ونأى به بعيدا عن ديار الحبيبة التي آلت لغيره أمام عينيه ووقفت الأعراف سدا منيعا يحول بينهما. وهو يستغرب من مشاعره المتحجرة التي بثّ فيها الحياة صوت هذه الناقة الخلوج. فقد تذكر قبيلته بدمع سخين بعد أن هجرهم وابتعد عن ديار الحبيبة بعد زواجها من ابن عمها مكرهة. إن المفارقة الدرامية تحدث عندما سلم مفلح أخو زوج صالحة جمل صالح "ساري" لدخيل بعد إصابة صالح بجروح أودت بحياته، هذا الجمل الذي ميّزصوت الناقة الخلوج، وأحسّ بها وتفاعل معها، وبأحاسيسه استدلّ أن هذا النواح يخصّ ناقة صالحة "وضحى" وهرع نحو مصدر الصوت مسرعا فالحزن والحنين والشوق جعله يتجه ناحية المصدر علّه يقدم المواساة والعزاء.

يقول "دخيل" في هذا السياق: " عزمت على الرحيل إلى صالحة في ديارها قرب الشِّعاب الغربية. ارتفع بُكاء الخلوج. قطع ساري حبله المربوط إلى الوتد. وراح يخب مسرعا يهجُّ نأيا صوب الصوت. قفزتُ فوق فرسي ألكزها لتسرع وراء جمل صالح، قبل أن تبتلعه البرية. أيكون ما في خاطري؟ العِلم عند الله". (١١) يجسد هذا المشهد الأنسنة فقد جعل الكاتب الجمل ساري يميز صوت الناقة الخلوج ناقة صالحة، ويحس بمُصابها ويعرف أنها تبكى على حوارها فيفزُّ من مجثمه ويقطع الحبل المربوط إلى الوتد ويسرع يخبُّ إلى حبيبته مشتاقا يريد أن يشاركها العزاء والحزن في مُصابها. لقد جعل السنعوسي الجمل ساري يدرك ويحس ويتصرف بعد تفكير، ثم يهرع للنجدة والمواساة والعزاء، وهو بذلك جعل الجمل "ساري" المعادل الموضوعي لدخيل، فدخيل ألهبه الشوق لصالحة وقرر أن يرجع إليها بعد مقتل زوجها الذي أُرغِمت على الزواج منه، أما الجمل "ساري" فقد ألهبه الشوق لناقة صالحة"وضحى". وتحدى كل شيء وحطم الأوصاد وهرع بكل حب وشوق وخوف إلى حبيبته ناقة صالحة "وضحى". إن هذه الثنائيات التي أنشأها السنعوسي (ساري ووضحة مقابل دخيل وصالحة) تشهد بأن السنعوسي استطاع أن يؤنسن الجمل والناقة ويقلدهما مقاليد البطولة في روايته، ويجعل الثنائي الإنساني يعادل ثنائي النوق في الإحساس والمشاعر والتفكير والإحساس.

لقد هيمنت شخصية الناقة على معظم أجزاء النص الروائي فقال "دخيل" يصف دخوله الكويت هو وصبيه وهما على ظهر الإبل يدخلان بوابة الجهراء "الدروازة" يقول واصفا: " يُمضي الشيخ وصبيه وقتا صعبا مع الإبل المذعورة وهي محملة بصنوف البضائع يسوقانها غصبا لتتخطى بوابة السور، دروازة الجهراء، مزبدة وهي تجعجعُ وتثير الغبار حولها. في الصحراء لا شيء يعلو الإبل إلا السماء وسقف البوابة الواطيء يثير الهلع في نفسها". (١٢)

لقد قدم الكاتب السنعوسي لوحة ناطقة بالحركة واللون والصوت؛ حيث وصف الإرهاق والتعب اللذيــْن اجتاحا الإبل على أثر الرحلة المتعبة والقاسية في قلب الصحراء الملتهبة، وكذلك وصف كيفية التعبير عن هذا التعب والخوف وخصوصا أنها ستضطر إلى دخول البوابة ذات السقف الواطيء، فصورها وهي تجعجع وتثير الغبار من حولها، إن فنّ وآلية التصوير والوصف يجعلان المتلقي يحس باحساس الإبل وبمشاعرها إلى الدرجة التي توصله أن يتألم بألمها وهي مجبرة على الدخول من البوابة ذات السقف المنخفض.وقد جاء هذا الوصف في الصفحة الأولى من الرواية فيعتبر كأنه مدخل للرواية التي ستحتل الناقة بها دور البطولة وستكون الشخصية المحورية فيها.

وفي مشهد تصويري آخر يصف الكاتب السنعوسي قوافل الإبل فيقول:" تنوخ قوافل الإبل داخل السور أثناء أوبتها الموسمية من بادية الكويت، وصحراء شبه الجزيرة العربية، محملة بالصوف والسمن والكمأ والإقط وحليب النوق والجراد اللحيم، واليابس من نبات العرفج والحَمض وروث الإبل من أجل الوقود."(١٣) لقد لخص الكاتب السنعوسي في الفقرة السابقة أنواع المواد وأصنافها التي تحملها الإبل للمقايضة فهي تدخل محملة بأنواع وتخرج محملة بأنواع مغايرة بعد أن تتمّ عملية المقايضة التي كانت متبعة آنذاك في الكويت والجزيرة العربية.

لقد استخدم الكاتب الألفاظ التي تخدم هذا المشهد عندما ذكر كلمة "تنوخ" فقد وصف قوافل الإبل وهي محملة بالبضائع ثم تنوخ على الأرض وتبرك، إن هذا التصوير فيه جمال الحركة الطبيعية وهو يصور الإبل وهي تتهادى وتتمايل استعدادا للنوخ والبروك على الأرض لتؤدي دورها في عرض ما لدّ وطاب الذي يتوق له أهل الكويت، وكأن

نوخها فيه متعة التفرج على شتى الأصناف والأنواع، وقد كانت اللَّوحة واقعية وناطقة بالصدق حين أحسن اختيار هذه الأصناف من البيئة الصحراوية التي يعيشون فيها لتكون الصورة قريبة من الواقع. فكانت الأصناف من قلب هذه البيئة من مثل الصوف والسمن والكمأ، والإقط، وحليب النوق، ونبات العرفج، والحمض وروث الإبل الذي كان يُستخدم كوقود.

ب. الناقة ووسم الملكية:

من أهم علامات الموروث الاجتماعي عند العرب وسم عنق الحوار بعد ولادته ويسمى هذا الفعل وسم الملكية للقبيلة. ويتم هذا الأمر مباشرة بعد ولادة الحوار فيبعدونه عن أمه بعد أن يعصبوا عيني الأم، ويكبلوا قوائم الحوار الصغير لِيَسِموا عنقه بوسم ملكية القبيلة، ويشكل هذا الفعل للناقة الأم الجزع والخوف والألم. تقول "صالحة": " كان صالح قد أناخها وربط قوائمها وعصب عينيها قبل أن يأخذ حوارها الذي اتم عامه الأول، من أجل أن يسِمَ عنقه بوسم ملكية القبيلة. ألفيت وضحى، معصوبة العينين، تجعجع وتُمرِّغ رأسها بالتّراب، تتفقد رائحة ولدها. ركضْت إلى صالح المقعى فوق الحوار المطروح أرضا مكبَّل القوائم.....أطبقت قبضتي على ذراع زوجي قبل أن يلامس السِّيخ الملتهب عنق الحُوار. التفتَ إليَّ مستغربا استنكاري فعلا اعتياديا. حملت صغيري منفرج الساقين على خاصرتي، فالتفتُّ إلى أبيه أتوسَّله ألا يفعل، فلا أحد يسِم الإبل في هذه السن" "ماذا بك؟"، قال غاضبا على دأبه. "عندي ولد"، قلت له.(١٤)

يعرض لنا السنعوسي لوحة أدبية متناغمة بين صالح وزوجته صالحة والإبن الصغير والناقة وضحى وحوارها، إن الوصف لفعل الوسم بالسيخ الملتهب ليكوي بها الحوار كي يسمه بعلامة الملكية للقبيلة يجعل المتلقي ينفر من هذه العادة المتوارثة التي تشي بالتعذيب للحوار الصغير أولا، وبالقهر والألم ثانيا، ولذلك يشارك المتلقي "صالحة" في نفورها من هذا التصرف وردة فعلها بمنع هذا الوسم ويؤيدها بمنع هذه الجريمة،ويحس المتلقي كأن الكاتب أناب شخصا آخر ليحل مكانه وينفذ العدالة، وذلك يعطيه دفقة من الطمأنينة بوجود شخصية "صالحة". أما "صالحة" فقد أحست بإحساس الناقة "وضحى" لأنها أمٌ تماما مثل الناقة "وضحى"، وإن منظر الناقة وهي مقيدة ومعصوبة العينين وهي تجعجع وتمرغ رأسها بالتراب يبعث الألم في المشاعر والأحاسيس، مما يدعو إلى رفض هذه العادات المتوارثة لخلوها من الرحمة التي تشي بالجبروت والقسوة والتسلط وقساوة القلب. وتلعب الأمومة في هذا المشهد دورا بطوليا عندما كانت المُخلِّص للحوار من الوسم، وإرجاع الحوار إلى حضن أمه وفك العصابة والأوصاد التي تكبلها.

إن مشهد الوسم يعادل مشهدا آخر أثار ذكريات "صالحة"، فهي قامت بالفعل نفسه عندما بلغ ابنها عامه الأول، وللأسباب ذاتها فمن الموروث الاجتماعي أن تُقص لقفة الطفل ويتم ختانه قبل أن يكبر وهو في سن صغيرة، لكن "صالحة" أيضا رفضت هذا الموروث، وهرعت تطبق بقبضتها على معصم عجوز القبيلة أم دحَّام، ووصف السنعوسي هذا المشهد المؤثر بقول "صالحة": " لحظة أطبقت قبضتي على معصم عجوز القبيلة؛ أم دحَّام، وهي تمسك بأصابعها المرتعشة شفرة حادة جاءت بها من أجل ختان الولد، ذلك الذي لا أظنه سوف يتم أبدا. فليكبر ويتخلص هو من لقفته إن شاء ذلك.(١٥)

الناقة والحقد (حقد الجمال)

إن الناقة حيوان ميزه الله بعدة صفات عن بقية الحيوانات، والسنعوسي في روايته سلط الضوء على صفة الحقد؛ لأنها أسست لحبكة الرواية وعقدتها تأسيسا فاعلا، وقد برز ذلك في السرد الروائي فتقول صالحة: " للإبل طباع صعبة مثل حياتنا. وفيةٌ إن أحبّت، ولكنها مزاجية، وتغور الإساءة في قلبها ولا تسامح من يسيء إليها.....فلأحد أسلافنا قصة متوارثة، حين أساء لبعيره صعب المراس، وأثقل عليه وآذاه في مأكله ومشربه بعدما شاخ. تربص له البعير في أحد أسفاره معه وحيدا بعيدا مقطوعا عن القبيلة وطارده حتى هرب جدّنا الأكبر إلى رأس تلّ عالٍ في الصحراء . ظل يراقب البعير الهائج في الأسفل يتحرى لحظة هدأته أو غيابه بعد طول انتظار. أضناه العطش في التل الصخري، وقرر النزول في اليوم الرابع. وافاه البعير في الأسفل. وعضه في كتفه وبرك فوقه يهرسه.(١٦)

إن صالحة وهي تسرد حادثة جدها الذي غدر به البعير؛ الذي كتم غيظه لينتقم مِن مَن أساء إليه، ولأنها من أل مهروس نسبة لجريمة الهرس التي نفذها البعير بصاحبه؛ لأنه أساء إليه يوما كفيل بأن يقلق صالحة من إيذاء الناقة، ومن ثمَّ ترغم صالحا عن التوقف عن وسم حوار الناقة رأفة به حتى لا يطاله انتقام الناقة.

لقد استخدم السنعوسي آليات الوصف في سرد رحلة "صالحة" إلى الشرق إلى الكويت لتلتقي بحبيبها دخيل الذي باعدت الأيام بينهما بسبب العادات والتقاليد التي تحجر الفتاة لابن عمها. و"صالحة" و"دخيل" كانا ضحيتيْ هذا الموروث الجائر منذ أن حجرها "صالح" يوم الدَّحل؛ حيث قررَّ عمها تزويج ابنه "صالح" من ابنة أخيه "صالحة"، أما أبو صالحة الذي بدوره قد وافق على الفور دون نقاش أو تفكير. جهزت "صالحة" رحل ناقتها وضحى وربطت اثنين من ضروعها لتحتفظ ببعض الحليب زادا للرحلة وتركت الضرعين الآخرين للحوار، وأخذت قربة ماء وأزمعت على الرحيل رغم أن ناقتها وضحى وحوارها لم يَردوا الماء منذ أيام، وهذا التصرف يدل على لهفتها الوصول إلى الكويت علَّها تلتقي بحبيبها "دخيل" بعد أن جاءتها أنباء زوجها الذي أصيب إصابة أودت بحياته في معركة الصَّريف. لقّمت ناقتها "وضحى" تمرة ووعدتها بأخرى عند الوصول، وشجعتها وطمأنتها بلقاء وشيك بحبيبها "ساري" معلنة: " لك في الشرق حبيب . . ولي في الشرق حبيب"(١٧).

لقد أظهر السنعوسي حقد الجمال الذي تجسد في ناقة صالحة في رحلة الشرق قاصدة الكويت حين قالت "صالحة": "ساعدنا الرجل ولكن وضحى جازت إحسانه نكرانا. بدا لي أن لوثة قد أصابتها ولم أفهم تصرفاتها. ربما أخافتها القطعان السُّود، قلت لنفسي، ولكنها خبَّت إلى الراعي تزمجر ما إن استقامت تحملني وصغيري على ظهرها. كادت تعض رأسه، ناورها، فظفرت بكتفه.ألقت بالرجل بعيدا وأنا أصيح بها، والرجل الغريب يناورها ويبعدها عن الراعي. استقام الراعي ينفض ثيابه من الغبار يبحلق بوضحى ويشتم: الجرباء.. الجرباء".(١٨)

تتشابك الأحداث وتتنامى في سرد الرواية، ويُبرز السنعوسي الضغط الكبير الذي تعرضت له ناقة صالحة"وضحى"؛ حيث "ساري" حبيبها وأبو حوارها الموجود هناك، وهي مأمورة برحلة شاقة عبر الصحاري من ديار صالحة إلى الشرق حيث يوجد "ساري" و"دخيل" الحبيبان البعيدان. إنَّ الضغط النفسي تكثف في داخلها على أثر الرحلة الشاقة التي تقطعها تحت أشعة الشمس الملتهبة، وعدم ورودها الماء لعدة أيام قبل الرحلة، ثم ازداد الضغط عليها برؤية القطعان السُّود التي تحمل لها ذكرى سيئة مشئومة، إن هذه

الذكرى تفك شيفرة جام الغضب الذي تُكـــّنه "وضحى" للراعي الأعرج، فقد تذكرت الزمن الماضي عندما كانت مصابة بالجرب واصطحبتها "صالحة" للبرية كي ترعى مع أغنامها تقول "صالحة": " مرّ غير بعيد عنا رجل يمضي غربا، في مشيته عرجٌ واضح، يحدو قطيعا كبيرا من الإبل السود الأصيلة، يتقدم الجمال المجاهيم كأنها بعضٌ قــُدّ من الليل، يغني بصوت مرتفع حادّ كصرير الريح، يصل إلى آخر القطيع الذي لا يرى آخره. خبّت وضحى الغبية صوب الغيمة السوداء تتبع حُداء الرَّجل، تغوص في حلكة القطيع الأسود مثل قرص إقط في بقعة قطران، وبواقي القطران في جسدها كادت تودي بحياتها. ركضتُ وراءها أبحث عنها بين سيقان القطيع السُود، وركض إلينا حادي الإبل يرفع ثوبه ويعضُّ طرفه، يرفع عصا غليظة بكلتا يديه، يبعد "وضحى" عن قطيعه بعدما أفشت اللّطخات السود على جسدها إصابتها بالجرب. يا لتلك العصا الغليظة كم آلمتني. فلع رأس وضحائي بعصاه وأدماها، أدمى الله قلبه".(١٩)

إن رؤيتها للقطعان السود أثار ذكراها الأليمة الذي نتج عن تصرف الراعي الأهوج آنذاك حين ضربها بعصا غليظة وأبعدها عن قطيعه لإصابتها بالجرب، فأثارهذا التصرف حقد الجمال الذي تتصف به، ويعد صفة متأصلة وملازمة لها ؛ فكانت ردّة فعل "وضحى" سريعة؛ فكأن رؤية القطعان السود كان إشارة لها استثارت حقدها وكراهيتها لهذا الراعي وقطعانه السُّود، الذي أذاها وآذى حبيبتها"صالحة" من قبل في ذلك اليوم المشؤوم، هذه الذكرى أثارت غضبها وأرادت أن تأخذ بالثأر من هذا الراعي قاسي القلب عديم الضمير، فهجمت عليه وصبَّت جام غضبها عليه وعضَّت كتفه وألقت به بعيدا، إن ردة الفعل المشحونة بالغضب أخافت صالحة وجعلتها تحس أن ما يحصل هو نذير شؤم عليها وكأن اللّعنة التي حُذّرت منها تلاحقها. ويكمل السنعوسي وصف الرحلة المشئومة رغم حلاوة المُرام للوصول إلى الحبيبين في الشرق.

تتأزم نفسية "وضحى" وتخاف على حوارها من الذئاب ومن فحيح الثعابين فينعكس ذلك على سلوكها وتصرفاتها فتصبح عنيفة وعنيدة ويصف السنعوسي هذه التفاصيل على لسان صالحة: "بالكاد تمكنت من فك رباط الخيمة على ظهر وضحى التي ترفض أن تبرك . كانت مستفزة شامخة لا تطيع. تلوي عنقها تحاول عضّي. ترفس إلى الجانب الذي أقف فيه لإنزال خيمتي من ظهرها. كنت لأحسب أنها تحذرني من المكوث هنا، لو أنها بركت وحملتني على ظهرها، ولكني لأول مرة لم أفهمها. تركتها لصيقة حوارها ونصبت خيمتي، ولم أعزم على نوم إلا بإدراك العِلم في وجهتي، ناخت "وضحى" أم لم تنخ" (٢٠)

لقد كشف السنعوسي من خلال الزمن النفسي في المشهد السابق؛ عن حالة التوتر التي انتابت ناقة صالحة "وضحى"، ويبدو أنها كانت متأزمة نفسيا، وكانت لا تريد عائقا يؤخرها عن الوصول إلى حبيبها "ساري".

إن سر تمرد الناقة "وضحى" كان تمردا داخليا حيث إنّ مجموعة من الأحاسيس المتضاربة الممزوجة بالخوف والهلع كانت تجتاحها وتسيطر عليها، فوضحى لا تريد التواني عن تكملة المشوار وخصوصا أنها تسمع عواء الذئاب الذي يهددها ويهدد حوارها، لكن "صالحة" عزمت على الرحيل بعد بزوغ الشمس من جهة الشرق لأنه دليلها للوصول إلى هدفها؛ لكن الناقة لم تطعها ورفضت أكل التمرة التي مدتها إليها صالحة، ومع استمرار عواء الذئاب فزع الحوار وتأزمت الناقة "وضحى"، وفي هذه اللحظه تأزم الموقف إثر تسارع الأحداث المتلاحقة والمتأزمة، فصور السنعوسي لوحة متحركة تصور الناقة "وضحى" وهي تدور حول حوارها خوفا عليه وهي تزمجرُ، وفي هذه اللّحظة

الفاصلة تصاعد الشعور بالخوف إلى ذُروته وخصوصا أن عواء الذئاب يأتيها من الخلف، وهذا يفسر تصرفها مع الولد الصغيرعندما هرع إليها فزعا يريد أن يحتمي بالناقة"وضحى"؛ فهو يأنس بجوارها هي وحوارها؛ ركض إليها من الخلف فرفسته بعيداً وطار الطفل وحط على بعد عشرة أذرع دونما بكاء. وهنا كانت المعادلة فقد عادل السنعوسي بين خوف الأم صالحة على طفلها بخوف الناقة "وضحى" على حوارها، وعندما رفست الناقة وضحى الصغير لم تكن تميز من هو القادم إليها من الخلف،فقد كانت تظن أن الذئاب قد داهمتها، فأرادت أن تدفع الخطر عن حوارها بمن يقتفي أثرهما من الخلف، فرفسته رفسة أودت بحياته وأسقطت ابن "صالحة" جثة هامدة مقتولا.

ناقة صالحة" وضحى" في مواجهة صالحة:

يعرض السنعوسي ردة فعل "صالحة" على مقتل ابنها فتصف ذلك بقولها : " أي صراخ رجَّ الصحراء رجًّا، ودوّى في الفضاء. كنت أنتحب، ثم أفلتّ ضحكات لا أقوى على كبحها بكفي. صرت أركض، وأركض حتى إذا ما تعبت من الركض أركض، ولا أصل المدينة..... أدركت مصدر الشخير العظيم أقف أمامه وطفلي بين ذراعي، أمسح كحل دمعي بكتفي" (٢١).

عبر السنعوسي عن عظمة مُصاب "صالحة" فرفيقة دربها وصاحبتها وحبيبتها الناقة "وضحى" والتي كانت تنعتها بـــ "وضحائي" من شدة تعلقها بها، هي من قتلت ابنها، ففقدت صوابها،خصوصا عندما قلّبت ابنها ولم تجد نقطة دم فتحسست عظام صدره فوجدتها هشيمة مكسرة، فصرخت بكل ما أوتيت من قوة في الصحراء المنبطحة فرجّتها رجّا. وصور السنعوسي بأنها كانت تمسح كحل عينيها بكتفها دلالة على غزارة دموعها واحتضانها جثمان فلذة كبدها بين ذراعيها مفجوعة ومذهولة لا تدري ماذا تفعل ؟. بعد ذلك لم تفكر "صالحة" إلا بالثأر والانتقام لأن حجم المُصاب كان فوق طاقة تحملها، وهي وحيدة في الصحراء في منطقة بين الشرق والغرب فلا تعرف كيف تتصرف فلا تقدرعلى الوصول للشرق ولا تستطيع العودة للغرب فرجعت إلى خيمتها وقامت بالحفر لتوسد ابنها في قاع الصحراء، وتغمره برمالها، تطبق فمها بكفها ثم وصلت إلى قرارالأخذ بالثأر حين قالت " لا يليق بي النحيب في هذه الأثناء، لأنه جدير بالناقة".(٢٢)

هرعت إلى خيمتها وأخرجت خنجر صالح، وفي رأسها صوت دخيل "لا تفكري، التفكير تأخير"، ذهبت إلى الناقة متناسية حِقد الجمال، والمفارقة أنها جاءتها متحدية من الأمام وهي تقبض على الخنجر بكفها تحت صدرها.. تفاجئها ناقتها بأنها تدني رأسها إلى وجهها مستسلمة تسلمها عنقها طواعية لأنها تحس بالذنب الذي اقترفته بدون قصد، وكأنها تعتذر لحبيبتها "صالحة" وتقول لها: عاقبيني أنا وابعدي عن حواري؛ أرادت أن تفتدي حوارها بنفسها، لكن حقد "صالحة" في هذه اللحظة الفاصلة كان أعظم؛ حيث طرحت حوار "وضحى" وعقرته أمام عينيها متناسية ما تخبئه لها الخلوج.

تفجَّر الحقد في قلب الناقة الخلوج"وضحى" وهي تقلب حِوارها الذبيح وتدفع جسده برأسها كأنها تتوسله أن يتحرك، فولولت على حوارها ولولة طربت لسماعها "صالحة" وكأنها تشفي غليلها من قاتلة ابنها، لكن حقد الجمال كان أعظم.

لقد جسد السنعوسي نهاية صالحة بسرده الأحداث على لسان دخيل بن أسمر: " تبعت ساريا الذي خبَّ مسرعا بخطوات متباعدة يقتفي نواح الخلوج، بين الغدران القريبة من البلدة وبين الجهراء، ترجَّلت من على ظهر الفرس أقف أمام تل بطول ذراع محاط بالحصى، يبدو قبر طفل صغير. "ساري" يقف إلى جواري يميل بعنقه يتشمم حوارا ذبيحا لا وسم على جسده. وإلى الأمام، على مبعدة خطوات، ناقة وضحاء نائحة تربض فوق

خيمة صغيرة متهاوية. مشيت نحوها بخطى ثقيلة. تبدو غاضبة في نوبة نواح، تتمايل برأسها يمينا وشمالا والزّبد يتطاير من مشفريها. هدأت وهي تنظر إلى "ساري" تدفع جسدها بقائمتيها الخلفيتين، تضغط وتحك صدرها بالخيمة المكومة تحتها. ثم استقامت تُهوْذِل في مشيتها صوب ساري والحوار الذبيح. وأنا أنقل بصري بين وسم آل مهروس وأسفل عنقها، والبقعة الحمراء أسفل صدرها وبين قوائمها. تقدمت إلى الخيمة المتهاوية أنحني إليها. تحجَّرت راكعا أنظر إلى ذراع هامدةٍ تظهر من تحت ركام الخيمة؛ كفّ يُمنى بنقوش أعرفها تطبق على خنجر صالح، وساعد بآثار العض في باطنه" (٢٣)

إذن الغلبة كانت للناقة "وضحى" فهي التي نجحت بأخذ الثأر من قاتلة حوارها فهرست صالحة هرسا في خيمتها؛ حيث جثمت فوق الخيمة لتقتل قاتلة حوارها تقتل "صالحة"؛ رغم الود الذي أظهرته لها طوال عِشرة السنين الغابرة. إن المفارقة تكمن في أن "صالحة" التي قتلت حوار الناقة "وضحى"؛ هي نفسها التي أشفقت عليها منذ زمن كي لايسِمها زوجها "صالح" بسيخ النار وسم الملكية، لكن الإبن غال، فإن ما دفعها للانتقام هو مقتل ابنها على إثر رفسة "وضحى" له لترميه مقتولا ومهروسا بعدة أذرع مما جعل "صالحة"تتحول إلى وحش فتّاك خالٍ من الرأفة والرَّحمة، فارقها الحب والحنان والشفقة على ناقتها "وضحى"، وأرادت لها أن تشرب من الكأس نفسه فقــْد الإبن؛ كي تذوق الحسرة وتتشرب الحزن كما ذاقته، ومن هذه الخاتمة الأليمة نستنتج أن قبيلة "صالحة" آل مهروس حكم الزمان عليهم أن يقتلوا هرسا وتلاحقهم اللعنة أينما حلُّوا وكأن اللعنة إرثا يتناوبونه على مر الأزمان. فكما هُرس جدّ "صالحة" الأول هُرست "صالحة" من قِــبَل ناقتها "وضحى" هرسا، أما الفاجعة العظمى فقد كانت من نصيب العاشق والحبيب "دخيل" الذي تحجر عندما رأى ذراع صالحة هامدة وكان الحناء الذي يزخرف اليد اليمنى كفيل بتحديد المجني عليها فالعاشق يلتقي بحبيبته التي كان يتوق لرؤياها ليجدها مهروسة تحت ناقتها.

ثانيا شخصية دخيل بن الأسمر:

سيمياء الاسم:

تتلخص دلالة الاسم الذي منحه السنعوسي لشخصية " دخيل"في الأبيات الشعرية التي قالها:

" أسميته "دخيل"
لأنه بلا خطى
يبحث عن مضاربٍ
في زمن بخيل . . (٢٤)

إنَّ السنعوسي عندما حدَّد شخصياته التي استقاها من الواقع ومنحها أسماء، فهذه الأسماء لم تأت عفويا وبدون دراسة، فالسنعوسي أراد لشخصياته أن تحمل أسماء ذات دلالات، هذه الدلالات تتماشى مع هيأتها وتصرفاتها وأفعالها، فعندما منح اسم "دخيل" لشخصية البطل الرئيسة والتي ستلعب دورا رئيسا ومحوريا في هندسة النص وبنيته، فإن هذا الاسم المختار يأتي متوافقا مع الواقع الحقيقي والواقع الروائي، فالسنعوسي بعد تحديد معالم نصه يدلف إلى اختيار شخصياته بحيث تكون" شخصية يشعر أنها قادرة على حمل أفكاره وإيصال رسالته، فيخلق جوا من الأحداث والشخصيات تساعدها على التحرك والنمو مما يؤدي إلى اختلاف الشخصيات، واختلاف الشخصيات يؤدي إلى اختلاف

وظائفها"[٢٥]؛ ومن ثم تأتي الخطوة الثانية وهي منح الاسم واللقب الذي يليق بهذه الشخصية وأفعالها، وصداها في روايته، فاختياره لاسم "دخيل" جاء عاكسا لواقع الأحداث التي عاشتها الشخصية وتنامت مع أحداثها وتلقت الصدمات والمفاجآت، فـ "دخيل"الذي كان ينعم بحب ابنة عمته، والتي عشقها منذ الصغر وهما يرعيان الإبل في مضارب القبيلة، إلى أن جاء اليوم المشئوم وقرر عم حبيبته "صالحة" تزويجها من ابنه تمشيا مع أعراف القبائل المتوارثة، فصالحة لا تستطيع أن ترفض هذا الزواج رغم عشقها لابن خالها "دخيل"؛ لأن الرفض يتعارض ويتنافى مع الأعراف والتقاليد، وعلى إثر هذا المصاب للحبيبين يضطر "دخيل" أن يهجر قبيلته، ويرحل عنها مندمل الصّدر ويعيشُ دخيلا على الكويت يرعى الشياه والإبل لبعض التجار. إذن هذا الاسم جاء بعد دراسة دقيقة لتفاصيل حياة "دخيل". وعندما شكل السنعوسي شخصياته؛ منح البطل خصائص وصفات مختلفة ليميزه عن بقية الشخصيات ويكون فريدا بها يتعاطف معه القارئ، حين منح هذه الشخصية البطولة وجعلها "تقود الفعل وتدفعه إلى الأمام "[٢٦] لكونها شخصية رئيسة في هذا العمل الروائي. وقد شاركته البطولة ابنة عمته صالحة مع ناقتها "وضحى". ولقد منح السنعوسي شخصية "دخيل" صفات مختلفة كي تكون شخصية نموذجية وفي الوقت نفسه؛ لها بعد وعمق دلالي فنيّ في نص روايته لأنها " ليست صورة فوتوغرافية من الحياة، وليست صورة طبق الأصل من الواقع بل يبعد بها الفن والخيال عن الواقع بقدر ما يهدف إلى تصوير المعاني الإنسانية لا المادية المجردة في ماديتها" [٢٧] لذلك ينمي السنعوسي شخصيته ليجعلها قادرة على أن تكون فاعلة وتؤدي دورها عبر تنامي الأحداث مما يجعل المتلقي يتفاعل معها ويحس بمشاعرها وأحاسيسها.وكان لدخيل دور فاعل في بناء النص السردي لأنه جزء من بنائها الذي "يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الرواية وأحداثها وهيكلها العام ." [٢٨]

البيئة والشخصية والمعرفة:

إن المكان له تأثير كبير على شخوص الرواية وتحركاتها، والروائي المتمرس يخلق المكان عن قصد وعن سبق إصرار، "فالمكان في الفن اختيار، والاختيار لغة ومعنى وفكرة وقصد"،[٢٩] وهو أحد مركباتها الأساسية التي يستحيل أن تقوم رواية بدونه. فالفضاء في الرواية، إذن، أبعد من أن يكون محايدا، فهو يتجلى في أشكال ويتخذ معاني متعددة، إلى درجة أنه يكون، أحيانا، علة وجود رواية من الروايات"[٣٠]

لقد تأثر " دخيل " بحيز المكان الذي عاش فيه ودارت الأحداث عليه وشمل هذا الحيز الكويت وغربها ممتدا إلى نجد في الجزيرة العربية، عاش في فضاء مفتوح تحدّه السماء العالية والأرض الصحراوية الجافة والتي يبحث فيها عن مكان فيه الكلأ والماء ليحط في رحابه" فالشخصية الروائية تتحدد من خلال الفضاء، ويتحدد الفضاء من خلال رؤيتها وبهذا يتحقق التفاعل بين الذات والموضوع". [٣١] إن الفضاء المكاني أثر على شخصية "دخيل" وجعله يتأقلم مع صحرائه وهضابه ووديانه وموسيقا هوائه، فنشأ عاطفيا وحانيا وشاعرا عاشقا فانعكس ذلك على هواياته وطباعه، فافترش الصحاري وتلحف بالنجوم السواري، وتنسم هواءالوديان والجبال وعزف على الربابة يشدو أشعاره وألحانه، معبرا عن خلجات قلبه وهواه وعشقه لابنة عمته "صالحة". وقد اعتمد السنعوسي في تقديم هذه الشخصية على العرض المباشر، أي يعتمد فيها على " تقديم مقاطع وصفية من الرواية يرسم فيها ملامح الشخصية وطبائعها بوساطة الراوي، أو يكل هذه العملية إلى شخصيات أخرى في الرواية، أو يترك الشخصية نفسها تقوم بهذا العمل". [٣٢]

إذن نخلص إلى أن "دخيل" كانت له خبرة بالفضاء الذي نشأ فيه وتنقل بين أنحائه، وكان يخبره كما يخبر راحة يده، وفي الصحراء يعرف كلَّ دروبها ويمشي دونما التفات، وتعمقت خبرته بالصحاري عندما لجأ إلى الكويت موطن الغرباء كما وصفها؛ فامتدّت معرفته وشملت الأمكنة التي تمثل" الحيز الذي تجري عليه الأحداث، ويكوّن علاقة تبادلية، فهو مولّد لفاعلية فكرية يوازي بها الطبيعة بأحداثها ومواقفها، فيصبح المكان مكانا محسوسا"[٣٣]

وصف الشخصية:

لقد ارتكز السنعوسي إلى الوصف الداخلي والخارجي في تشكيل وإبراز شخصياته، ومن أمثلة ذلك حين وصف السنعوسي دخيلاً وصفا خارجيا عند دخوله بوابة الجهراء في الكويت: "وكما لو أنه نذير سوء، تجهم الشيخ وغارت رقبته بين كتفيه، وتعرق جبينه رغم هبوب نسمات ربيعية باردة"[٣٤] وقال أيضا: "يتربع الشيخ محمد بثوبه ترابي اللون على الأرض المتربة بين بضائعه وجماله، يدني إليه نعليه النجديين المغبرين، يدسها أسفل فخده.يحملق صوب المقبرة الغربية ويرفع رأسه يتحقق من موضع الشمس. يتململ في جلسته ويطرق هازا رأسه كما لو أنه يهرب من ضجيج السماسرة وزوار السوق"[٣٥]

لقد واءم السنعوسي في وصف شخصية بطل روايته ما بين الوصف الخارجي والوصف النفسي لهذا البطل، وانعكاس مشاعره الداخلية على الهيئة الخارجية، فقد تشاءم "دخيل" الذي تقمص شخصية الشيخ محمد الشاوي؛ حين دخل الكويت وشاهد حراس السوق يقودون شابا للساحة كي ينفذوا حكم الرّجم بسبب جريمة التحرش التي اقترفها، هذا المشهد جعل "دخيل"متشائما فهو يعتبر هذا المشهد نذير شؤم عليه.لأنه أحيا وأنعش ذكرياته في الماضي البغيض حين تعرض للسجن وللجلد المخفف بعد مقتل :صالحة" لاختفاء الناقة الخلوج دليل الجريمة.. انعكس هذا الشعور الذي يحمل دفقة من التشاؤم على هيئته فتجهم وغارت رقبته بين كتفيه وكأنه ينكمش على نفسه، وينتظر فاجعة كبرى يريد أن يتوارى عنها ولا يراها. وفي المشهد الثاني يصف السنعوسي بطله الشيخ محمد الشاوي (دخيل) وهويتربع على التراب في جلسته وكأنه يحس أن مرجعنا إلى هذا التراب فمنه انبثقنا إلى الحياة وإليه سنعود، وأن الدنيا لا قيمة لها. وفي هذا المشهد الوصفي المفعم بالحركة واللون الترابي الذي يعتبر لونا محايدا؛ قد شكلَّ علامة مهمة من علامات هذا المشهد الأدبي، فقد استغل السنعوسي هذا اللون وإشاراته لإرسال رسائل لمتلقيه ؛ كي يفك شفرتها، ويستخرج دلالاتها لأن اللون يكتنز كمًّا هائلا من المدلولات كونتها التراكمات المعرفية،فهذا اللّون في هذا المقام يعكس الأحاسيس الحزينة والكآبة وموت الأحلام والفرح في داخله؛ حين جعل لون دشداشته لونها ترابي، والتراب الذي تربع عليه لونه ترابي؛ هذا التراب الذي يمنحنا إحساسا بأن الحياة فانية. وفي هذا المشهد كان كل شيء مغبرا ومغطى بلون التراب، فالشيخ محمد"دخيل" ولون دشداشته ونعليه النجديين المغبرين أيضا وهيئة جلوسه على الأرض ووضع نعليه أسفل فخده الذي يشي بالالتصاق بالأرض مما يعكس تدهور نفسيته وضياع أحلامه في البلد الذي لجأ إليه. ولم يتوقف التشاؤم على انكماشه وغور رقبته بين كتفيه، لكنه صوّب نظرة إلى المقبرة الغربية ناحية الغرب، والتي اعتاد أن يزورها في كل زيارة؛ لأنه قدْ دفن فيها حب حياته، وبعدها زهد الحياة فلا ونيس له إلا الربابة والعزف عليها وكومة ذكريات تشعل نار الحسرة والألم في حناياه.

لقد كان "دخيل" يقاسي العذابات والآلام من شعوره أنه لن يظفر بحبيبته "صالحة" ما دام ابن عمها"صالح" موجودا، وعندما رحل عن الدّيار يرصد السماء ونجومها تعادل خيبة أمله وانكساره بخسران الحبيبة فقال:" لم أفتقد شيئا إلا ما ذكرت، والنجوم حتى النجوم تبدو في الصحراء أقرب، تكاد تقطفها بيدك مثل بلح نخلة فتية. أما النجوم هنا تبدو بعيدة في سماء مدينة الطين، مثل "صالحة".(٣٦). لقد راودت هذه الهواجس "دخيل " وهو يصف شعوره في مدينة الطين "الكويت".التي لجأ إليها وأحس بالاغتراب فيها،فهو يعاني من هجر الحبيبة وهجر الأهل والأحباب فكان يراوده "فيض من الضياع والشجن والإحساس بالقهر والانهزام" (٣٧)؛ فالقهر يسحقه، والحنين يعذبه، والأمل باللقاء يتبدد على عتبة الغربة والإغتراب.

وقد عبر عن أحاسيسه وآلامه بإنشاده قصيدة الخلوج يلوم بها نفسه، فيما تنوح البهيمة وتحن إلى حوارها الذَّبيح، ويقول في مقطع من هذه القصيدة:

"لا نجمة في الليل تنعشني
بضحكتها
ولا عنوان من أفلوا
يضيء دروب من ظلُّوا
ولا رَحُبَ السبيل . .
أبكي،
وعشقك؟قبر أجدادي
وطعم الذكريات يضج بي:
"يا عاشقَ الرّملِ الذي لم يحتملْ قدميكَ
لحظة خطوها،
صبر جميل".(٣٨)

يجسد هذا النص المعاناة والحزن اللذين يملآن قلب "دخيل"، فيظهره بائسا حزينا فلا النجوم تنعشه بضحكتها، وبموت الحبيبة وأفولها لم يعد عنوانها "ديار صالحة" يضيء دربه؛ لأن هذا العنوان ماعاد له طعم بعد رحيلها. فيبكي لأن البكاء هو الذي يروح عن أحزانه ويطردها خارج صدره فكأن الدموع تنفثها وتقصيها. حتى الذكريات جعل لها طعما؛ لكن المفارقة أن هذا الطعم يضج به ويصيح عليه مناديا: يا عاشق الرَّمل هذا الرَّمل الذي لم يحتمل قدميك لحظة فراقها، فيقدم له التعازي ويقول له "صبر جميل" على هذا المصاب الجسيم. فنجد أن السواد يغلف نفسية الشاعر والحزن قد سكن قلبه وطعم الفرح فارقه بلا عودة لأن الحبيبة قد أفلت ورحلت، وسكنه الحزن والفراغ العاطفي واللاحياة.

ويقول " دخيل" واصفا نفسه:" لفظتني الصحراء إلى مدينة ترفضني .وعلى سبيل مغازلتها اضطررتُ إلى أن ألوي لساني على طريقة أهلها في الحديث، أقلب الجيم ياء وأمطط الكلمات، رغم أني صموتٌ مثل الصحراءلا أجيدُ لهجة الحاضرة البحرية الصاخبة الخالية من الحكمة".(٣٩)

يصف "دخيل" نفسه في مشهد رحيله ولجوئه للكويت بعد أن وقع في مصيدة الكذب وتمَّ اتهامه زورا وبهتانا بقول قصيدة غزل في حبيبته وهجاء عمها شيخ القبيلة، فوجد نفسه محاصرا، لا حبيبة ولا أمان، فقرر أن يرحل إلى الكويت، وحدد الفرق بين أهل قبيلته وأهل الكويت باللَّهجة ونطق الحروف، وحدد أنه لا يتقن أسلوب كلامهم ولا نطق

حروفهم لأنهم يقلبون الجيم ياء، لكنه اضطر أن يقلدهم ويجاري لهجة الحاضرة البحرية الصاخبة.

جاء وصف " دخيل " أيضا على لسان "صالحة" حين رافقته مع ناقتها اليتيمة "وضحى" إلى الدّحل ليوهموا ناقة والد "دخيل" الخلوج؛ أن "وضحى" هي حوارها الذي تبكي عليه منذ سقوطه في الدّحل، فتقول وضحة واصفة ابن خالها "دخيل" : " أحدِّق بابن خالي، رجلٌ في سنّ الصّبا، يعلّق مزودته على كتفه، ويحمل ربابته على ظهره، يمشي دونما التفاتٍ في فضاءٍ يَخبَرُه كما يخبر راحة يده، في صحراء يعرفُ كلَّ دروبها إلا دربا يؤدي إلى قبر أبيه".(٤٠) وصفت "صالحة" الحبيب ابن الخال وصفا خارجيا فهو فتيّ يتمتع بالحيوية والشباب وهو في سنّ الشباب، ومن صفات هيأته الخارجية أنه يحمل ربابته فوق ظهره، ومزودته على كتفه. ونلحظ من وصفها الدقيق اهتمامها بهذه الشخصية فنظرتها له نظرة المتأمل الفاحص لأدق التفاصيل، وأضافت أنه يمشي دون التفات في الصحراء التي يعرفها معرفة جيدة وعنده خبرة في تضاريسها ونواحيها ووديانها وهضابها، وعلى الرغم من هذه المعرفة الجغرافية الدقيقة للمكان لكنه يجهل مكان قبر أبيه الذي تاه في الصحراء بعد عودته من رحلة الحج. حدَّدت "صالحة" صفات "دخيل" الخارجية ثم أعقبتها بالصفات الداخلية حين تطرقت للخبرة والمعرفة للأماكن.

الخبرة والمعرفة في عالم النوق:

لم تتوقف الخبرة عند معرفة الفضاء الصحراوي بأماكنه، لكن الخبرة ظهرت بكيفة التعامل مع الإبل فتقول: " راحت تسرع في المسير معاودة البكاء ما إن تعامدت الشمس فوق رؤوسنا، فعرفت أن الدّحلَ قد صار قريبا، ثم خبَّت الخلوج تسبق دخيل ونثار طين أخفافها وراءها. ألقت بجسدها تبرك إلى جوار الدّحل، واستحال بكاؤها نواحا وهي تميل بعنقها يمينا وشمالا مثل ثكلى نادبة. التفت إليّ دخيل يشير آمرا بعدم الاقتراب، ثم راح يعالج الأمر بخبرة العارف. أخرج حبلا ووتدا ملفوفا بخرقة جلدية من مزودته. أقعى وراء الناقة يربط قوائمها بإحكام، ثم قام برفع ذيلها وحشر الوتد في مؤخرتها بقسوة قاصدا إيلامها بحبس الهواء في بطنها، يذكرها بأوجاع الولادة، ثم ربط ذيلها إلى إحدى قائمتيها الخلفيتين، فوق الوتد المحشور، كيلا تلفظه خارج جوفها. ..... أخرج دخيل خرقة قماشٍ من مزودته وراح يحكم ربطه على منخري الناقة التي تميز حوارها من رائحته ..... يعجبني في دخيل شكله إلى جانب معرفته بكل شيء كما لو أنه شيخ حكيم رغم أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة. لبس الغترة والعقال في سن صغيرة. أحب فيه عينيه الدعجاوين الكحيلتين تحت حاجبين معقودين أبدا. حاجبين مرسومين بعناية أحدهما يحمل أثر جرح عمره خمس سنوات، ندبة في وجه دخيل تذكرني بـــ"صالح"، يوم تركها لـــ "دخيل"خطا يخلو من الشعر يفرق الحاجب. أحب شاربه النابت حديثا، ناعما مثل زغب أفراخ الصرد الرمادي، وجديلتيه الطويلتين اللتين تبزان جديلتيّ طولا، وهما تتسللان من غترته المثبتة بعقاله المائل يمينا. صموت بعكس صالح الثرثار المتباهي ببطولاته الوهمية. أحب فيه كلّ شيء إلا صمته هذا. وميل عقاله، ونظره الذي لا يصوبه إلى وجهي، يخفض بصره وقت أتحدث إليه، ويطيل النّظر إلى كفي".(٤١)

لقد وظَّف السنعوسي زمن الوصف ليعطي "صالحة" مجالا واسعا كي ترسم شخصية "دخيل" فوصفته بدقة متناهية وكأن وصفه يحلو لها فبذكره يخفق القلب توقا وعشقا، فوصفت الهيئة ولون العينين والحاجبين والندبة المحفورة في أحدهما، وكذلك

الشنب النابت حديثا كأنه زغب أفراخ، ووصفت الملبس والغترة والعقال وهيئة وضع العقال بميلان، وماذا تحب وماذا تكره، فهي تكره صمته، وتكره تجنبه النظر إليها وقت محادثتها، لأنها أرادت أن تنظر إلى عينية وتقرأ الحب والعشق فيهما؛ فترضي غرورها، وكما عبرت عمَّا تحب عبرت أيضا عمَّا تكره، فهي تكره ميلان العقال فوق رأسه. يظهر هذا الوصف شدة إعجاب صالحة" بـــ"دخيل" وبأفعاله وتصرفاته وخبرته التي كانت تندهش لها وتذهلها مما دفعها للتساؤل: " كيف لهذا الفتى الذي يكبرني بأربعة أعوام فقط أن يعرف كل شيء عن كلّ شيء؟".(٤٢) وبذلك أضافت صالحة لصفات "دخيل" المعرفة والخبرة التامة العامة بكل الأمور بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة، فهي ترى فيه الكمال.

إن هذا الوصف الدقيق يدل على الحب والاهتمام، وذكر الحبيب في الخطاب يدل على المحبة، ومن هذا الحب المتدفق لـــ"دخيل" يتفجر كرهها لـــ"صالح" الذي تسبب بندبة دائمة في حاجب دخيل تركها له صالح قبل خمس سنوات.

تتميز شخصية "دخيل" بالصلابة وعدم التراجع في القرارات، والبتّ بأي مشكلة على وجه السرعة، وإنه لا يؤجل قرارا يتخذه، فهويحسم المواقف ويبت في القرارات دون تأجيل؛ ويعتبر أن التنفيذ سيد الموقف وأنجح طريقة للخلاص، فكانت له مقولة يرددها دائما هي أن " التفكير تأخير" واتخذ هذه المقولة مبدأ له في الحياة؛ ينفذ قراراته بلا توانٍ، وكثيرا ما كان يقدم هذا المبدأ لحبيبته صالحة ويقنعها به كي تتبع هذا المبدأ. وقد نفذت هذا المبدأ خير تنفيذ في رحلتها إلى الكويت؛ حين نحرت حوار "وضحى" دون أي تفكيرلأنها تذكرت مقولة "دخيل"التفكير تأخير".

ثالثا شخصية "صالحة"

تعتبر شخصية "صالحة" عصب النص الروائي، فهي الشخصية الرئيسة في الرواية وهي شخصية محورية؛ لأنها مركز للحدث والأحداث ولكل الشخصيات الرئيسة والثانوية، وتعتبر العمود الفقري للرواية، و هذه الشخصية تندرج تحت الشخصية المدوّرة، ولذلك سوف يتم تسليط الضوء على هذه الشخصية من مناحٍ متعددة حسب رؤية الكاتب السنعوسي وماذا أراد أن يقدم من خلالها.

صالحة والملكية:

تعد شخصية "صالحة" من الشخصيات الرئيسة، التي تساوي وتعادل شخصية "دخيل" في رواية السنعوسي بمشاركته إياه البطولة، ولأهمية هذه الشخصية وأهمية دورها في حبكة الرواية وعقدتها، ورد اسمها في عتبة النص عندما منح السنعوسي روايته عنوانا فيه صك الملكية" ناقة صالحة". وقد ظهرت هذه الشخصية في إطارالملكية في مَواطِن كثيرة في فضاء النص الروائي، ففي العنوان وردت مالكة للناقة "وضحى" التي عرفت بها في قبيلتها وبين أهلها وأقربائها. فالناقة كانت جزءا منها ومعادلها الموضوعي منذ الخلق تقول صالحة:" ولدت وضحى قبل أن تدهمني حيضتي الأولى بثلاثة أحوال. أحببتها لأنها تشبهني. ماتت أمي ساعة ولادتي. ولفظت نفسها الأخير مع أولى شهقاتي".(٤٣) وتقول أيضا: "مرضت يوم مرضت وضحى، هكذا هي الحال دائما بيننا. كانت أياما عصيبة أيام حيضتي الأولى وأنا أخْبَــرُ دما من دون جرح. تلك الحيضة التي تأخرت كثيرا حتى ظننتها لا تجيء. أصابتني الحصبة وأصابها الجرب. كدت من الحُمَّى أموت، وأوشكت "وضحى" بفعل وشاية القطران أن تفارق الحياة. قضيت عشرة أيام أهذي في الخيمة. تدهنني أم دحّام بالزيوت العطرية الساخنة نهارا، وتسهر حَسنى طيلة الليل إلى جواري تُمسد شعري، وتحدثني عن عالم الحريم الذي ألجه حديثا".(٤٤) إنَّ "صالحة" تحس أن ظروفها تتطابق مع ظروف ناقتها "وضحى"في السراء والضراء، فكلتاهما فقدتا

الأم ساعة الولادة، وذاقتا مرارة اليتم، وصعوبة العيش بدونها والحرمان من حنانها. وكذلك كلتاهما تمرضان في الوقت نفسه، فعندما أصيبت "صالحة" بالحصبة وعانت من الحمى، كانت ناقتها "وضحى" تعاني من الجرب الذي يعذب الناقة ويؤدي إلى نفوقها إذا لم تنج منه. وكلتاهما عاشتا عذاب الفرقة والغربة عن الحبيب، فصالحة قد رحل عنها حبيبها "دخيل" حين تزوجت من ابن عمها "صالح"؛ بعد أن اتهموه بنظم قصيدة يشبب بها بحبيبته صالحة ويهجو عمها أبا صالح، أما "وضحة" فقد رحل الجمل "ساري" عنها عندما امتطاه "صالح" وذهب إلى معركة" الصّريف" ليقاتل إلى جانب ابن صباح. إن هذا التلاقي في الظروف والمآسي جعل "صالحة" تحب ناقتها " وضحى" وتتعلق بها فهي معادلها الموضوعي في المآسي والنكبات.

أما الموطن الثاني للملكيه فهو الأرض" أرض صالحة" فتقول: " بعيدا نخيم عن القبيلة كنّا، صالح وأنا وولدي، نتحقق من وصول السيول إلى الشِّعاب، بعد أيام مطيرة، لنعود ونُخبــِر القبيلة قبل هلال عيد الأضحى. لا زرع في الأرض، ولا مياه في الشِّعاب بعد، تأخرت هذا العام ".(٤٥) لقد حددت "صالحة" ديار صالحة وقد حدّد موقعها السنعوسي أنها تقع في الشمال مكان حِلّ رشيد أخوال صالحة . أما زوجها صالح فهو الذي أطلق هذا الاسم على هذا المكان فتقول صالحة: " كان ساهما ينظر إلى أرض يدْريني أحبها، وأحبّ المكوث فيها كل ربيع بسبب الخضرة والماء فيها. ابتسم وقال: " ديار صالحة".(٤٦) فصالح أطلق هذا الاسم على هذة الأرض الصالحة للحياة لغناها بالماء والعشب وكل عناصر الحياة.

وصف شخصية صالحة:

شخصية رئيسة، وصفت وصفا داخليا وخارجيا، وهذا الوصف جاء على لسان "دخيل" وكيفية رؤيته لها، فيقول: " حمامة وحشية بين فواختَ وادعة، فرس جموح عصيّة على الترويض. المجنونة طارحة النوق، تبز فتيان القبيلة في مبارياتهم. ما رأيت مثلها قط، وقت تطبق قبضتيها على ذيل الناقة تجرها للأسفل، وتلوي بساقها الصغيرة قائمتي الناقة الخلفيتين وتطرحها أرضا. تتفوق على عجائز القبيلة بلسانها السليط ونقش الحناء. أحببتها لأنها كثيرات في واحدة. صعبة سهلة حرة فاتنة، ذكية غبية ماجنة، كذابة صدوق. هي في الحقيقة ما كذبت قط، ولكنها مثل العجائز إن أرادت قول الحقيقة مثلتها بحكاية تختلقها؛ النعجة الغبية سكبت وعاء الحليب، فأفهم أنهامن أسقطته. . عاثت الأفعى في أعشاش الحبارى، فأعرف أنها داست بيوضها عامدة أو بغير قصد. ناقتي لا تحب عقالك مائلا، فأعدل عقالي. أحببت حماقاتها وقت ترتكب فعلا مجنونا ثم تلوذ متكورة بخيمتها، ولتشتعل الدنيا في الخارج. أحببت غباءها وقت يلتبس عليها فهم أي شيء حتى مشاعرها تطلق جنون ضحكاتها إذا ما داهمها خوف أو حل بها كرب، وتذرف الدمع سخيا في فورة فرح. أحببت وجها ما رأيت مثله قط، يؤاخي بين ملامح النحيب دمعا وتقطيبة حاجبين، وبين ثغر يكركر. أحببتُ فيها ثيابها المشجرة المزهرة، كما لو أنها تستعيض بالربيع ثوبا في الصيوف القائظة. ابنة عمتي حلوة الصوت وأحيانا اللسان، وأنا أردتها وما أردتُ غيرها".(٤٧)

لقد جاء وصف شخصية صالحة مفصلا على لسان حبيبها "دخيل" الذي يراها بعين المحب العاشق، وقد ذكر السلبيات والإيجابيات في شخصيتها وطباعها، ورغم ذلك اختتم الوصف بتأكيد الرغبة في الزواج منها لأنه أرادها زوجة له بكل ميزاتها وهفواتها وتناقضاتها، فأحبها كما هي بلا زيف ولا تصنع، فقد أحب فيها شجاعتها وخبرتها في

عالم النوق، وأحب فيها صدقها فهي لم تكذب بتاتا، وأحب فيها براءتها فهي تجمع بين ملامح الحزن وتقطيب الجبين وفي الوقت نفسه فم يبتسم ويضحك، لقد انبثق جمالها من طبيعتها غير المزيفة، ومهارتها فهي أمهر من الفرسان في مبارزاتهم، وأمهر من العجائز في رسم الحناء، وقد أبرز " دخيل" تهورها وعدم اهتمامها بما يحصل بعد ذلك. وكذلك سلاطة لسانها، ولا تكترث ولا يُكبح جماحها. وعشق جنونها وهبلها. وأحب ذوقها في الملبس فثيابها مشجرة مزهرة فكأنها توحي بالربيع المزهرعندما يأتي في الصيف القائظ ملتهب الحرارة. لقد لخص "دخيل" شخصية صالحة بجملة واحدة عندما قال: "أحببتها لأنها كثيرات في واحدة"(٤٨) تبدو صالحة ذات شخصية متعددة فهي تجمع عدة شخصيات في شخصها؛ لذلك رغب " دخيل " الاقتران بهذا العدد من الشخصيات التي تجمعت في قالب واحد صُبَّ في هيئة وشخصية "صالحة". إن هذه الشخصية الصّلبة التي لا تجزع ولاتخاف، وإذا صمَّمت لا تتراجع، ويشهد على ذلك حين صمَّمت على اللّحاق بحبيبها دخيل والذهاب شرقا إلى الكويت مع ناقتها "وضحى" دون أن تستشير أحدا ولم ترجع لمشورة قبيلتها خوفا من منعها من هذه الخطوة المحوطة بالأخطار.ويتمثل أيضا في موقف آخر يدل على تصميمها على الانتقام والأخذ بالثأر؛ إذا تلقت الأذى مباشرة أو أوذي حبيب أو مقرب لها ؛ وخير مثال على ذلك عندما انتقمت من الراعي الذي ضرب ناقتها "وضحة" بسبب اختراقها صفوف قطيعه الأسود وهي مصابة بالجرب فتقول "صالحة": "تسللت بخفة وراء آخر جمل في القطيع، الفاحم، جمل حقير أعرج، سكبت على مؤخرته السائل الأسود. شبّت فيه النار أحالته قطعة من الفحم المتقد. ولا أتذكر شيئا عقب ركضي إلى الخيمة إلا عصا راعي المجاهيم وألمي، والدم الذي سال بين فخذي بعد عدة أيام من تطهري من حيضتي الأولى، وركبتين أضمهما إلى صدري، أسند إليهما جبيني وأنا أكركر في فورة انتحابي. أطبق أذني بكفي، أخرس صيحات بنات القبيلة ونسائها خارج الخيمة: " صالحة بنت أبوها في الخيمة . . صالحة بنت أبوها في الخيمة!"(٤٩)

إن هذه الحادثة تصف شخصية "صالحة التي امتزج فيها الوصف الداخلي والخارجي معا، فقد تجسد الوصف الخارجي بحركة الجسد عند الهجوم وهي تحمل شعلة النار كي تقذفها على مؤخرة جمل هزيل من القطيع الأسود الذي يملكه راعي المجاهيم، وتكورها على نفسها وطريقة جلستها حين أسندت جبهتها إلى ركبتيها، وحركة الراعي وهو يهجم عليها بعصا غليظة وقد تمثل الوصف الداخلي بحزنها وألمها على أثر الاعتداء الجنسي عليها وانطوائها على نفسها وإصرارها على أخذ الثأر من المعتدي فالإصرار والتحدي أطّرا شخصيتها.

صالحة وصفة الهبل:

لقد التصقت صفة الهبل بشخصيتها كنوع من الدعابة، ولم يكن "دخيل "هو وحده الذي ينعتها بـــ"هبلة" لكن أخوه مفلح المعجب بها أيضا كان يصفها بهذا الوصف:

" سألني:

"يعجبك الحرّ؟"

كنت ساهمة بالطير وهدأته المستفزّة على وكره:

"أيكون الحر حرا وهو مقيد معصوب العينين؟"

أفلت ضحكة من أنفه:

"طويلة اللسان وغبية" (٥١)

لقد أكد فالح على صفتين لصيقتين بشخصية "صالحة" وهما طول اللسان والهبل، فكأنه يؤكد على رأي أخيه "دخيل". وكذلك لم ترد صالحة له النّعت، لأنها أكدت على

هاتين الصفتين الملتصقتين بشخصها حين قالت: " أوشكت أن أرد له النَّعت، لكنه لم يكن غبيا في يوم، وهو لم يتهمني في ما ليس فيّ، أنا الغبية وكل بنيات القبيلة وعجائزها يشهدن".(٥٢)

وفي موقف آخر نعت "دخيل" صالحة بالهبلة حين روت صالحة: " تعرق جبيني وأنا أعصر الضرع، الذي ينكمش ويستطيل إزاء عبثي وحمدا لله أن أرسل لي من أطبق قبضته على ساعدي، يبعد كفّي العابثة قبل أن تدر البهيمة حليبها المغشوش. أمسك بساعدي الرقيق الأملس قبل أن تطاله آثار أسناني . كان"دخيل" الذي رأيته لأول مرة عاقدا حاجبيه متورد الوجه.

"هذا خروف"

قال من دون أن ينظر إليَّ، وهو يكبح جماح ضحكة ملّحة. أفلت ساعدي من قبضته. رفعت ساق البهيمة كالبلهاء، أريه ما كنت أعصر:

"بل إنها نعجة، حتى أنظر لضرعها!"

.....

"ليس الخروف هو الغبي"

أثار حنقي. انتبهت إلى ميل عقاله فضحكت.

"عقالك مائل"

ضحك أكثر:

"وأنت غبية"(٥٣)

إذن يعتبر ذلك اقرارا أكيدا من "صالحة" تؤكد صحة هاتين الصفتين . وإنَّ نَعت "صالحة "بهما من قبل "دخيل" وأخيه "فالح" يأتي في سياق المودة والمحبة والمداعبة والمغلفة بحسن النوايا. ويشي سكوتها على هذه الصفات الموجهة إليها من دخيل إلى عمق حبها له، وتقبل مزاحه وجديته وكل ما يصدر عنه.

وهناك من نعتها بغبية في أكثر من موقف هي العجوز "أم دحّام"، تقول "صالحة": "همست أم دحّام بصوتها شبيه الثغاء: " ما فاد في الشّمس عناد". كنت أهذي. أتذكر أشياء، وأشياء لا أتذكرها.قلت لها وأنا أمسح بواقي الماء من شفتي:" دخيل يحبّ نقوش الحناء في يميني". صفعتني. بدّدت هذياني. لم تكن صفعة إيقاظ. . أو ربما كانت. أولتني ظهرها زاجرة: " غبيّة".(٥٤)

<u>الصدق في المشاعر:</u>

ومن ملامح شخصيتها أنها إذا أحبت صدقت وأخلصت، ولن تستطيع الخروج من هذا المستنقع بتاتا، فعندما تزوجت من ابن عمها "صالح" لم تتمكن "صالحة" التأقلم معه، بل ظلت نافرة قاسية، لم تبلَّ ريقه بكلمة طيبة؛ رُغم يقينها بأن صالح يحبها ويطلب رضاها وودّها، وعندما جاءها نبأ إصابته وأنه لن يعود لم تجزع، ولم تحزن، بل فكرت مباشرة في الرحيل والرجوع إلى الحبيب "دخيل"، رغم أنها ستقطع مسافاتٍ ومسافات عبرالصحاري في القيظ ومخاطرالوحوش والذئاب والأفاعي من أجل الوصول؛ لكنها ظلت صلدة كالصخر. لقد حجرت "صالحة" كل الحب والود ولوعة الشوق لابن خالها" دخيل"؛ لأنه حبها الأول.

التماهي في العشق:

إن أهم ما يميز هذه الشخصية عشقها لابن خالها إدخيل" لكن أحلامها تبددت تحت مقولة " العم وليّ، والخال خليّ" وحُجرت لابن عمها "صالح" فحزنت وقهرت وتبددت أحُلامها وأزهِقت خوالجها على عتبة الأعراف والتقاليد العربية القديمة التي ما زال المجتمع يحاكيها، هذه الأعراف التي تدوس على عواطف المرأة وتقهرها وتقف سدّا منيعا أمام أحلامها وآمالها.ولذلك يعتبر السنعوسي المرأة العربية من " أكثر العناصر قهرا في المجتمع. فحيثما وُجِد قهر واستغلال لا بدّ أن يصيب المرأة منها القسط الأوفر، وحيثما وجدت الحاجة إلى حشر كائن في وضعية المهانة، لا بد أن يقع الاختيار على المرأة"(٥٠)

لم يكن عشق "صالحة" لـــ "دخيل" متوقفا على المشاعر فقط، لكن العشق اتخذ شكلا آخر، حين أصبحت "صالحة" ترى "دخيلا" نموذجها في هذه الحياة وكأنها لا ترى غيره فراحت تقلده إعجابا وحبا به وبأفعاله وطباعه،ومن علامات ذلك أنها عندما رأته يوم الدَّحل يحمل مزودة على ظهره، ويضع فيها كل ما يخصه في رحلاته وذهابه وإيابه، ويعتبرها بيته، فيحمل التمروالطعام والأدوات، أصبحت تفعل مثله تماما فتحمل مزودةً من القماش، تشيلها معها أينما حلّت وتضع فيها الحناء والكحل والمشط والقهوة المرة والتمر وأقراص اللبن المجفف.

صالحة وتأنيب الضمير:

لقد كان تفكيرها بـــ "دخيل" وهي امرأة صالح يشعرها بعض الأحيان بتأنيب الضميرفتقول: "هل كنت آثمة بإقحام دخيل في خيالاتي؟" يلاطفني، ويحنو عليّ مثل ربابته خشية انقطاع وترها الوحيد."(٥٥) إن عذاب الضمير لازمها طوال حياتها لكن الأمر كان خارجا عن إرادتها؛لأنها ظلت أسيرةَ عشق"دخيل". لم يكن يدري بسرها إلا أم دحّام، التي قالت لها: " إنّ مَن يشيل الأمس على ظهره، تغوص قدماه في اليوم، ولا يدرك الغد." (٥٦) لذلك عاشت "صالحة" طوال حياتها "في فلك التأنيب واللّوم والتقريع وجلد الذات" (٥٧)

رغم إن "صالحة" تعرف أن صالحا يحبها لكنها لم تستطع أن تبادله هذا الشعور فقالت: " لم يدر "صالح" أنه منذ قرارهم ذاك، وأنا كما أرادو لي، صرت حجرا. لا مشاعر أحملها له، لا أحبه لا أكرهه. كان يتودد ويتوق لأن يبدر مني شيء تجاهه، أي شيء، لكني كنت طفلة عصيّة علـــى طموحه. استكثرت فيه حتى إحساس الكراهية، وإني لأدري أن كراهيتي سوف ترضيه لأني ألقي له بالا." (٥٨)

تعترف "صالحة" وهي ذات الشخصية الصلدة التي اكتسبتها من عيشها في بيئة صحراوية قاسية جافة تحسب ألف حساب لرشفة الماء، وتستشعر حدوَها وتفسر جعجعتها وإثارتها للغبار؛ حيث عاشت معها ولازمتها منذ نعومة أظفارها وتدربت على فهمها وكيفية التعامل معها، فقد كانت رفيقتها وصاحبتها منذ أن تمرنت على سوقها لترعى، إن هذه الظروف جعلتها تتأقلم بطباع النوق وتحقد حقدهم فلم تُشعر زوجها "صالح" بأي محبة رغم تودده إليها في كثير من الأحيان.

إذن يبدو أن شخصية "صالحة" هي شخصية رئيسة في الرواية وهي تعتبر شخصية مدورة فلم تكن على وتيرة واحدة خلال حبكة الرواية، ظلت الشخصية المحبة الودودة العاشقة لناقتها إلى أن تمردت الناقة عليها في رحلتها نحو الشرق حتى فقدت صوابها وتحوّلت إلى شخص آخر لا يعرف الرحمة ولا يعرف للسماح طريقا، فـــقد "تحولت من حالة الود والرأفة إلى حالة التوحش والتنمر وفقدت عقلها وصممت على الانتقام ولم تطل التفكير؛ لأن "التفكير تأخير" فهرعت إلى خنجر "صالح" وتقدمت نحو حوار "وضحة" ونحرته أمام عينيها، "ويمكننا أن نعد هذا "التحول أحد المفاتيح التي تقترح تحويل منطق

الكشف السردي إلى أفق جديد، إذ يقود إلى تحقيق علامة سيميائية مركبة وفعّالة من طبقات الحادثة الروائية"؛ حيث شكلت هذه الحادثة صدمة المفاجأة للمتلقي، وغيرت مسار الأحداث والنهايات.(٥٩) ونخلص إلى أنّ "صالحة" عاشت وماتت على عشق "دخيل".

الشخصيات الثانوية:

أولا/ صالـــح:

يعد صالح شخصية ثانوية في الروايه لكن أهميتها جاءت من كونها السبب الرئيس في تكون عقدة الرواية عن طريق شبكة من الأحداث والعلائق المتداخلة فيما بينها وبين بقية الشخصيات، والعائق المنيع الذي أوصد سبل الحياة الهانئة للحبيبين "صالحة ودخيل" لأن الأعراف المتوارثة تنص على أنّ البنت تُحجر لإبن عمها.

الغيرة والحقد "صالح" أحقد من جمل:

كانت الغيرة تأكل أحشاء صالح من ابن خال صالحة "دخيل"، فهو يعرف وعنده يقين كامل بأن ابنة عمه "صالحة" وابن خالها "دخيل" يعشقان بعضهما، ولقَّهُما هوى معقود، وفي الوقت نفسه يكره دخيل ويكنّ له البغضاء، وينتهز أي فرصة مواتية لإيذائه. فعندما تبارى دخيل وصالح على طرح بعير عملاق أرضا، ومن سوء الحظ أن الغلبة كانت لـــ"دخيل". جّن جنون صالح وثارت غيرته وحقده على "دخيل" لفوزه بالمبارزة فشجَّ حاجبه ليترك فيه ندبة أبدية. ومن الأسباب التي أوغلت الحقد في قلب المُحب المرفوض شكوكا حول مدى العلاقة التي جمعت بين "صالحة" وإبن خالها "دخيل" فهو موقن أن هذه العلاقة اخترقت حدود العذرية، مما جعل المقت والحقد يملآن دواخله ويومئ بذلك لقوله لـــ"دخيل": "ما راعيت حرمة".

الإحباط والاستسلام:

لقد عاش صالح عمره محبطا خائبا لأنه لم يفُز بقلب "صالحة"، ولم توصله كل محاولاته ومخططاته إلى قلبها، فقد كان يقرأ عشق "صالحة" لـــ"دخيل" في عيونها، وبعد إصابته في معركة"الصّريف" ونقله لعلاج جروحه في الكويت، عرف "دخيل" رغم تخفيه ولثامه، رغم أنه كان في النزع الأخير، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يومئ إلى الأثر البالغ الذي تركه"دخيل" في قلب "صالح"، الذي كان غريمه ومنافسه المتفوق عليه في الفوز بقلب "صالحة". وعاشت صالحة أمام عينيه لكن عواطفها كانت بعيدة المنال، فتمتم قائلا:" ظفر "ساري" بـــ "وضحى"وما ظفرت بقلب صالحة". ارتعشت شفته السفلى وأفلتت عيناه الَمع سخيّا قبل أن يسلم الروح. بتر الموت كلماته الأخيرة:" مرادك في الشّعاب الغربية. . في ديار صالحـــ . . "(٦٠)

إن هذا الإفصاح يدل على كم القهر والحزن اللذين ملآ قلب "صالح" ضد غريمه "دخيل" فهو يتهمه بأنه لم يراعِ حرمة عندما عشق ابنة عمه وكأنه يتهمه بانتهاك العرف والتقاليد عندما تعدّى على حق من حقوقه وفاز بقلب "صالحة"، وملأت الظنون والشكوك قلبه بأنه أيضا من انتهك شرفها، ثم يفصح وهو يتجرع مرارة الحسرة والألم في قلبه بقوله يائسا أنَّ الجمل "ساري" فاز بقلب النّاقة "وضحى" وأنا لم أستطع الفوز بقلب "صالحة" لأنه كان ملكك، وهنا وازن "صالح" بهذه المقارنة بين البشر والنوق ورجّح فيها كفة "ساري" على كفته، عندما فاز وظفر بقلب حبيبته "وضحى" وفي الوقت نفسه هو فشل. ثم ينهي كلامه مع لفظ أنفاسه ستجد مُرادك غربا في الشّعاب التي تخص ديار صالحة" ويسلم الروح. إن هذا الحوار يدل على استسلام "صالح" واعترافه بخسارته أمام

غريمه "دخيل" إلى الدرجة أنه يطلب منه اللّحاق بحبيبته "صالحة" التي لم تحب سواه في ديار صالحة.

لقد كان "صالح" شخصية مكروهة من قبل زوجته "صالحة" ومن قبل أخيه "فالح"، وكان وراء كره "فالح" له هو الاستشعار بعدم الموازنة والعدل في المعاملة والحب من قبل أبيه شيخ القبيلة، ورجحان كفة الميزان لصالح أخيه "صالح"؛ رغم تفوقه عليه بأمور شتّى.

لقد اتسمت شخصية "صالح" بالأنانية والحقد، وما يؤكد ذلك أنه قبل أن يتزوج "صالحة" رغم معرفته بأن قلبها بعيد المنال، مما جعله يلوك حسرته إلى يوم مماته. وعلى الرغم من رحيل "دخيل" عن الديار، وتفرد "صالح" بـــ "صالحة" فقد امتدَّ كرهه له، وكان آخر لقاء جمعهما في الكويت وهو جريح طريح فراش الموت، يقول "دخيل" عن هذا اللقاء: " أمسكت بذراع صالح. كان هامدا، بدا ميتا لولا دموع هطلت من عينيه أحالت غبار وجهه خيوطا من الطين، وهو ينظر إلى عينيّ من وراء اللّثام، ويطيل النظر إلى الندبة في حاجبي الأيسر ليتحقق من كوني أنا، في آخر مكان يتوقع أن يراني فيه لقائي. .....لولا الرصاصات في جسده، رُبَّما، لخنقني بكلتا يديه انتقاما "[٦١]

من الصفات الخارجية:

تناول السنعوسي صفات شخصية صالح وسلوكياته فوصف مكره وحقده وتناول أحاسيسه وخوالج نفسه ولم يتوقف عند هذا الحد بل تناول جانبا آخر من سلوكياته ألا وهو عدم اهتمامه واعتنائه بنظافة جسمه وملبسه. تقول "صالحة":" صالح لا يعتني بشيء حتى نفسه. لو أنه يلتفت إلى ذاته عوضا عن الانصراف إلى الآخرين".[٦٢] إن عدم اهتمام "صالح" بنظافة بدنه وهندامه يفضي إلى ازدياد الفجوة بينه وبين "صالحة"، لأنها ترى فيه كتلة حقد ومؤامرات للانتقام من الناس الآخرين وخصوصا "دخيل".فهو قذر من الداخل ومن الخارج.

ثانيا شخصية فالح:

- فالح الطفل وروح الشيخ أبي الغرابين:

تعد شخصية "فالح" شخصية ثانوية، لها دور هام في تنامي أحداث الرواية وحبكتها وعقدتها، ورغم إن شخصية "فالح" ثانوية فهي لا تقل أهمية عن الشخصيات الرئيسة في الرواية؛ لأنه "لا يمكن أن تكون الشخصية المركزية في العمل الروائي إلا بفضل الشخصيات الثانوية التي ما كان لها أن تكون هي أيضا لولا الشخصيات عديمة الاعتبار"[٦٣] إن شخصية "فالح" هي اليد الخفية وراء تحرك مسار الأحداث. وقد وُصِفت هذه الشخصية في الرواية وصفا داخليا وخارجيا، وإن أعظم وصف لها جاء على لسان أم دحّام حين أفصحت أنه الملعون بروح الشيخ. وإن سبب هذا النّعت أنه ولد ساعة موت أكبر معمِّر في القبيلة، الشيخ أبي غرابين، أشهر شعراء القبيلة وصقاريها.ويقال أن هذا الشيخ عاش عمرا مديدا ما يقارب الألف حول، إلى الدرجة التي كان أهل القبيلة لا يستبعدون موت هذا الشيخ، لكن في ليلة ظلماء غائمة ارتفعت صرختان من خيمتين في الوقت نفسه؛ صرخة العجوزحفيدة الهرم على إثر موت جدّها، وصرخة أم صالح وهي تضع مولودها الثاني "فالح". وتؤكد أم دهّام أن روح الشيخ قد سبقت شهقة الوليد الأولى عندما خرج للحياة.وسكنت جسده، وتؤكد أم دحّام أن فالحا كان صامتا حين خرج للحياة، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على الحكمة، ومما تميز به أيضا أن صوته يشبه صوت البالغين وأنَّ حاجبيه كانا كثـَّين؛ لذلك تفاءل أهل القبيلة بأن هذا المولود سيعيش مديدا، بسبب ولادته التي تزامنت مع معمر القبيلة، ومما أكد شكوكهم أن اهتماماته كانت الصقور والشعر تماما مثلما كان الشيخ المعمر أبو الغرابين.

فالح وأبوه شيخ القبيلة:

إن الشيء الذي كان يقلق فالحا ويقض مضجعه هو عدم اكتراث أبيه شيخ القبيلة له، فكان يبذل جهدا غير قليل في لفت نظر أبيه، فكان صوته يشبه صوت البالغين مذ كان طفلا، وأصبح يتصرف كالكبار محولا أن يرضي أباه الذي كان لا يباهي بأحد من بنيه إلا صالح. ويقول "دخيل"عن الشيخ عم صالحة أنه كان " يولي محبة عظيمة لبكره صالح، أراد أن يكافئه بأجمل فتيات القبيلة وأكثرهنَّ صيتا كما لو أنه ابنه الوحيد، رغم أن فالح يتفوق على صالح في كل شيء؛ في الشعر والفروسية وشئون الهجن، ولكن الشيخ لا يرى أحدا من أبنائه إلا صالح ".(٦٤)

إن هذا الرأي في شخصية فالح جاء على لسان دخيل الذي كان يرى فالحا أنه أفضل أبناء شيخ قبيلة آل مهروس لتميزه بالشعر والفروسية وشئون الهجن، لكن الحظ عاكسه بأن والده لا يرى من أبنائه أحدا غير "صالح".

فالح وصالحة:

إن ميل شيخ قبيلة آل مهرووس أبو صالح إلى ابنه "صالح" ونكرانه لابنه فالح مَهْما قدَّم من شهامة وبطولات، وتميز في الشعر، وصيد الصقور وتربيتها؛ حتى أصبحت جزءا من حياته؛ جعل فالحا يكره أخاه صالحا، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى أكثر من ذلك، فقد كان معجبا بزوجة أخيه ويحبها،وكان يعتبر أن أخاه لا يستحقها، وصار يظهر لها فحولته وشجاعته، وقد وصل به الأمر إلى أن يخبر أخاه كذبا بأن الشيخ ابن صباح يستدعي صالحا كي ينضم إلى الهجانة، وقد لبى "صالح" هذا الطلب ومن هنا بدأت حبكة الرواية " جاء فالح على ظهر ناقته السَّبوق يزف البشارة إلى شقيقه الأكبر؛ قال إن قوات أمير الكويت وحلفائه يبلون بلاء حسنا متغلغلين في مدن نجد، وإنهم قد استولوا على الزُّلفي وبريده وعنيزة، في حين سلَّمت الرياض لابن سعود من دون قتال.عقد فالح حاجبيه وهو يلتفت إليَ نصف التفاتة قبل أن يستأنف حديثه لـِ صالح:" جاءنا رسول بن صباح يطلبك بالاسم على رأس الهجانة لمعركة وشيكة" ."(٦٥)

إن هذا التصرف يوحي بأن فالحا قرر أن يبعد أخاه "صالح" عن "صالحة" ويفرق بينهما رغم علمه بأن قلب "صالحة" ملك لابن خالها "دخيل"، وهو يعرف أن آل صباح سيواجهون ابن الرشيد أخوال "صالحة" في الصَّريف. وبذلك يكون قد اصطاد عصفورين بحجر واحد، فيتخلص من أخيه زوج "صالحة"، ومن "دخيل" حبيب "صالحة"، وبعد ذلك تخلو الساحة له. إن هذه الحبكة الروائية توحي كأنها مستقاة من عمق التاريخ وترجع المتلقي إلى قصة قابيل وهابيل، وصراع الأخوين على امرأة، مما يدفع حب الأثرة والتملك قابيل أن يقتل أخاه هابيل. لقد هبَّ صالح لتلبية نداء ابن الصباح لأن أخاه فالحا أخبره أن المعركة ضد ابن الرشيد فأحس أن الفرصة سانحة كي يتخلص من غريمه "دخيل " الذي فاز بقلب زوجته رغم زواجه منها وولادة طفلها. لقد كان يحس بالعجز كلما نظر إلى عينيها.

كانت "صالحة" موقنة من حب فالح لها، وهذا الشيء كان يشعرها بأنوثتها، ويرضي غرورها تقول:"كانت كلمات فالح عذبة شفيفة تشير إليَّ في كل شطر، وكنت حقيرة أدري"(٦٦) إن هذا الاعتراف يؤكد تخطيط فالح لإزاحة أخيه من طريق "صالحة". هذا من جانب، ومن جانب آخر جاء فالح إلى "صالحة" يخبرها بأن زوجها مصاب وإصابته بليغة ومؤكد أنه لن يرجع بتاتا. وأراد أن تلجأ إليه "صالحة" بدون أن يقلل من احترام نفسه

ويحافظ على كبريائه، فقال لـِ "صالحة":"وأنا تعرفين دربي"[٦٧] إذن كانت هذه الشخصية هي اليد الخفية في تغيير مسار الأحداث لأنها " تُعد الركيزة الأساسية في الكشف عن القوى التي تحرك الواقع"[٦٨] من حول الشخصيات ومن حولها، وبدونها تفقد الرواية عنصرا مهما في حبكة النص وإخراجه.

فهناك من الأحداث ما يثبت نوايا "فالح" ضد أخيه "صالح"، فعندما نقل فالح"أخاه "صالحا" إلى الكويت للعلاج، بعد إصابته في المعركة التي نتج عنها إصابات بالغة وقاتلة أودت بحياة "صالح" وبالصدفة المحضة رأى "فالح" دخيلا هناك فأراد أن يعطيه الجمل "ساري"؛ دون ان يلفت نظر أخيه صالح للأمر، فقام بمناداته تحت اسم "يا الذيب"وتعرف عليه وسلّمه "ساري"، دون أن ينطق باسمه حتى يحمي تستره.

الوصف الخارجي:

أما الوصف الخارجي لشخصية فالح فجاء على لسان " صالحة" فتقول: "ألفيته عند النار ليلا، يوم طرح البعيريطعم صقره يربوعا.يجلس وحيدا أمام خيمة المجلس الكبيرة وقد انصرف الشيوخ والرجال إلى مخادعهم. عيناه الواسعتان على طائره وهو يطبق مخالبه على اليربوع، ويمزق لحمها القليل بمنقاره. سنا النار ملقى على وجهه الأسمر، يبدو جادّا إلى حدّ يدعو إلى الضحك، جدية لا تناسب صبيّا في مثل سنّه. يبدو كما نعتته "أم دحّام" طفلا بروح شيخ. فالح يبصرني من دون أن ينظر إليّ وهو أمر لا أفهمه. لم يلتفت صوبي، حينما أقبلت إليه، وهو يمسّد ظهر طائره: "حيّا الله صالحة" جلست قريبة من النار أسند ذقني إلى ركبتيّ أحملق في الصّقر. فالح يسرف بالعناية بنظافته. فرغ الصّقر من طعامه، وألبسه فالح البرقع. سألني: يعجبك الحرّ؟أيكون الحر حرّا وهو مقيّد معصوب العينين؟!" أفلت ضحكة من أنفه: "طويلة لسان وغبيّة "[٦٩] لقد وصفت صالحة فالحا بدقة مبرزة تفاصيله الخارجية :عينان واسعتان، بشرة سمراء، يعتني بنفسه وملبسه ونظافته، صقار،جاد وكأنه طفل بهيئة شيخ. أما الوصف الداخلي فكان ملكة تمييز القادم بدون أن يلتفت وعندما سألته صالحة عن ذلك أجابها: "شميت ريحتك".[٧٠] إجابته تفضي إلى مدى إحساسه بها، وأنه يستطيع تمييزها دون أن يلتفت فهو يراها بقلبه قبل عينه.

ثالثا / شخصية أم دحَّام:

رسم السنعوسي شخصية أم دحَّام رسما دقيقا، رغم أنها قامت بدور ثانوي، لكنها كانت ركيزة من ركائز بنية النص الروائي، وملمحا من ملامح المجتمع البدوي المستمد من التراث القديم، كونها نموذجا تقليديآعرفناه منذ القدم. وقد جعل السنعوسي أم دحّام هي شخصية معينة للشخصيات الرئيسة وتحديدا شخصية "صالحة". وقدم السنعوسي لها وصفا شمل الوصف الخارجي والداخلي من خلال مواقف مختلفة مع صالحة، في السراء والضراء.

الرأفة والحنان والرعاية:

لعبت أم دحَّام دور المربية لـــ"صالحة" مذ لفظت أم صالحة أنفاسها عند ولادة ابنتها الوحيدة "صالحة". فكانت تراعيها وتجلب لها الحليب وترضعها، وإذا مرضت "صالحة" تقوم بمداواتها، والوقوف إلى جانبها حتى تشفى، لقد كانت هذه العجوز صاحبة قلب حنون، ورحيمة بـــ"صالحة". ولم يتوقف الأمر على الرعاية لكنه تجاوز ذلك وأصبحت المرشدة وكاتمة الأسرار.

بيت الأسرار وصوت الضمير:

تقول "صالحة" عنها أنها لم تكن ترغب لـــ"صالحة" أن ترافق "دخيلا" يوم الدّحل، لأنها تعرف بواطن نفس "صالحة" وميلها لـــ"دخيل" فقالت العجوز أم دحَّام بعد أن أسندت باطن كفها المرتعشة على رأسي: " النهار طويل والشَّمس حامية" (٧١)، أرادت أن لا تلتقي صالحة بابن خالها"دخيل" فكأنها تقرأ المستقبل.

كان القلق والريبة والخوف يهيمن ويسيطرعلى شخصية أم دحَام فهي قلقة على "صالحة" لأنها تعرف مشاعرها تجاه "دخيل"، فكانت دوما تلومها على التوقف عن نقش الحناء على كفها لأنها موقنة أن السبب هو عناد "صالح" ووفاء لـــ "دخيل".تقول "صالحة": أحدّق في عينيها أجيب:

"ما نقشتها يوم عرسي". تفلت ضحكة تهكم من أنفها:" غدا تُرزقين بمولود ينسيك".(٧٢) تعتبر شخصية "أم دهّام" صوت الضمير، الذي كان يدق أجراسه في أذنيْ "صالحة" كونها تخاف عليها من المستقبل المخبوء.

من شدة اهتمام "أم دحّام" بـــ"صالحة" كانت تحاول أن تقحمها في عالم النساء بعد أن تمت خطبتها لصالح، هذا العالم الذي تكرهه "صالحة" فكانت ترى خبرة "صالحة" بنقش الحناء السبيل إلى ذلك، فبعد أن نقشت كفوف كل بنيات القبيلة ونسائها أسندت كفها المرتعشة إلى ركبتي "صالحة" كي تنقشها، وتقول "صالحة" في وصف هذا المشهد: "وفيما كنت أنقش لها بتلات زهور مسحت ظاهر كفها، ثم أسندتها إلى ركبتيّ ثانية. انفرجت شفتاها عن لثة فارغة من الأسنان، وقالت بصوت النعجة: "هذي النقشة للصغيرات الحلوات مثلك"، فتحت عينيها على اتساعهما تردف: " أنا عجوز. . انقشي لي الشّمس"(٧٣)

الخرافات والأساطير:

إن أبرز ملمح مثلته شخصية "أم دهام" هو تعلقها بالقصص والأساطير القديمة، وكأنها كتاب قديم يحفظ الماضي الذي تعتبره مقدسا عندما ترويه. فقد روت لصالحة أنَّ فالحا تقمص صفات العجوز المُعمر الذي عاش فوق الألف عام. وكذلك روت لها قصة جدها المهروس الذي قتل على يد ناقتة التي حقدت عليه وهرسته جرّاء إيذائها.

استنكرت أم دحام عناد "صالحة" بعدم قبولها أن تختن طفلها، ورفضته رفضا تاما وحذّرت وهي تشير إلى الولد بسبّابتها فاغرة فمها الخالي من الأسنان: " إن عاش بلقفته؛ يعيش ملعونا. . إن عاش".(٧٤) إن هذا القول يومئ بمعتقداتها القديمة، وبالقصص التي كانت تُروى لإخافة مَن يحيد عن الموروث. فهي قطعة أثرية من الماضي بكل ما يحمله من مفاهيم ومعتقدات تبثها في زمن آخر.

الخبرة والمعرفة:

لقد اتسمت شخصية أم دحّام بالخبرة والمعرفة؛ اكتسبتها من العمر المديد ومن تجارب الحياة؛ هذه الخبرة استمدتها من بيئتها الصحراوية، فكانت لها خبرة في الأعشاب والتداوي، ها هي تقوم بدهن "صالحة" في طفولتها عندما أصابتها الحصبة بشتى أنواع الأعشاب التي تخفف من أعراض الحصبة وتساعد على الشفاء". وكذلك كانت تعتبر قابلة نساء القبيلة فلها خبرتها في التوليد ورعاية الأم الوالدة. وهي طبيبة وممرضة في الوقت نفسه، فكانت تقوم بعمل الختان للمواليد من أطفال القبيلة تقول صالحة": " أطبقت قبضتي على مِعصم عجوز القبيلة؛ أم دحام وهي تمسك بأصابعها المرتعشة شفرة حادة جاءت بها من أجل ختان الولد".(٧٥)

الهيئة والوصف الخارجي:

لقد وصفت "صالحة" العجوز "أم دهّام" وصفا دقيقا يظهر شكل وحركة العينين واليديْن، والفم الذي يُظهر لـــُثـــّة بدون أسنان، والصوت الذي يشبه صوت النعجة، وحركة اليدين عندما مسحت البتلات وطلبت نقش الشمس. ويبرز هذا المشهد أيضا وصفا داخليا للعجوز؛ حيث يظهر ما يدور في خلد العجوز فقد أرادت شغلها عن التفكير بحبيبها "دخيل" وفي الوقت نفسه تمطرها بوابل من النصائح كي تتجهز لزوجها الذي تكره"صالح".

شخصية الولد:

شخصية الولد وهو الطفل الذي ولدته صالحة. هذه الشخصية الحاضرة الغائبة، ولم يرد أي وصف خارجي لهذه الشخصية سوى بعض الوصف الطفيف وهو يرضع من الناقة "وضحة"، وهو يلعب مع الحوار. ونلاحظ أن هذا الولد لم تعطه صالحة اسما؛ بل عندما تذكره تقول الولد، وأمومتها لم تتحرك تجاهه إلا حين أرادت "أم دحّام" ختانه بشفرة حادة، فأطبقت " صالحة قبضتها على يدها ومنعتها، إلى الدرجة التي أدلت "أم دحّام" بهواجسها لـــ" صالحة"؛ أن اللعنة ستصحبه طوال حياته ما دام لم يُختن. والمرة الثانية التي تحركت فيها مشاعرها تجاهه يوم رحلتها معه إلى الشرق " الكويت"حين رفسته ناقتها "وضحة" مما أدى إلى تنمر "صالحة" وفقدانها السيطرة على نفسها فانتقمت من ناقتها بذبح حوارها أمام عينيها انتقاما لمقتل الولد.

إن الكاتب لم يبح علنا بنسب الولد؛ بل ألمح إلى ذلك من بعيد بجمل دلالية، عندما وصف هجوم الراعي الأعرج على وضحة وصالحة فأدمى رأس "وضحة" وهشم عصاه على "صالحة" وقام باغتصابها وجعل المتلقي يفهم مقاصده بفك شيفرة " ....والدّم الذي يسيل بين فخِذي بعد بضعة أيامٍ من تطهري من حيضتي الأولى" (٧٦) وجعل هذه الشخصية كأنها وجدت لتمثل تحول الشخصية، هذا التحول الشديد الذي حول شخصية صالحة إلى شخصية متنمرة، قاسية، لا تعرف الرحمة ولا الرأفة، فانقلب الحب والحنان للناقة وضحة إلى عداء وانتقام، فنحرت حوارها أمام عينيها.

الخاتمة:

لقد جسد السنعوسي من خلال روايته "ناقة صالحة" وعبر شخصياته المستقاه من البيئة البدوية التي تسكن القفار والصحراء رؤى وحقائق اجتماعية، فقد عرض لنا أنماطا من الشخصيات المختلفة بعضها كانت شخصيات منبسطة وواقعية، وبعضها جاء على هيئة مغايرة فكانت شخصيات مدورة ومركبة، ولعبت هذه الشخصيات دورا اجتماعيا يبرز بعض القضايا المثيرة للجدل من مثل : وقوف العادات والتقاليد حائلا منيعا وعائقا أمام علاقات العشق تحت ظل مفهوم : العم وليّ والخال خليّ"

لقد أفضت هذه الدراسة أيضا إلى اختراق أغوار الشخصيات، فكشفت سلوكياتها وبواطنها ودوافعها، وأثرالفضاء المكاني والبيئي عليها وفي تشكيل مفاهيمها. وتعرضت للبعد السيكولوجي والبعد النفسي من خلال تحليلها، وبينت أثرهما على الشخصيات، وفرزت الشخصيات الرئيسة وحددت الشخصيات الثانوية وعلائقها مع الحدث في بنية النص الروائي.

إن الروائي سعود السنعوسي نفذ إلى وجدان وعواطف شخصياته، وأخرج مكنونها؛ كي يحدث تفاعلا بين المتلقي وشخصياته، ويقارب بينها ويستطيع المتلقي فهم مقاصدها، والحكم عليها. ونبذ كل ما يكبل آمالها وأحلامها من عرف وتقاليد مفروضة على كاهلهم، واستطاع أيضا أن يجمع كل ذلك بلغة سردية تجمع بين عمق السرد وعمق الحقيقة.

ومما ماز هذه الرواية بأنها أحلّت شخصية الناقة محلا مهما في بنية النص وتنامي الأحداث وعقدته، كما أنها كشفت لنا عالم النوق وبينت عاداته، وطباعه، وردات فعله، وهيأته، وعادلت بين شخصيته وشخصيات الرواية وواءمت بينهم، وزودت المتلقي بكم ثقافي في هذا العالم الذي باعدت الحضارة والمدنية في التعرف عليه. فعالم النوق يعتبر جزءا من ماضينا وحضارتنا. فقد عمد السنعوسي إلى جعل شخصية الناقة شخصية رئيسة ثم رفعها إلى درجة الإنسانية في الإحساس والشعور، وفي الحب والغيرة والشوق والحقد، ونصّبها منصبا بارزا في روايته عندما جعل الناقة وضحى معادلا موضوعيا لـــ صالحة.

Abstract

Representations of Character tropes in Saud al-Sanousi's "*Salha's Camel*"
By Khatma Al-Khouly.

Set in the outskirts of Kuwait's Oases and the region of Najd in the Arabian Peninsula in the early years of the twentieth Century, Salha's Camel depicts a kaleidoscope of nomadic characters, reflecting the inner essences of traditions, culture and behaviours, both negative and positive. Sanousi's character analysis encompasses the wider desert landscape, focussing on the deep bond between human, animal and nature, delving into the interiority of the two female protagonists, Salha and her animal companion, the camel Wadha. The author setting his artistic lens on the camel Wadha's traits, mannerisms, characteristics, paralleling those of the female protagonist, Salha as they traverse their journey across the Arabian landscape ti reach Kuwait. In addition, the camel's world is intricately interconnected with the the novel's characters, constructing a special universe of symbols and signifiers. This paper utilizes a descriptive analytical approach that focuses on main and secondary character analysis; highlighting the character tropes that drive the novel's plot and epitomise the foundational backbone of the novel.

Main themes: Character tropes.

Main characters: Salha, Camel, Dakheel, Saleh, Faleh.

Key Words: Character, Camel, Salha,

الهوامش:

١. إبراهيم،أنيس ورفاقه: المعجم الوسيط،ج١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٧٢م، مادة شخص ص ٤٧٥.
٢. صبرة: البنية الروائية في يموتون غرباء، لمحمد عبد الوالي: ص ٧٩.
٣. عزام،محمد: البطل الروائي، الموقف الأدبي، دمشق، ع ٣٤٦، ص٤٧.
٤. شولز، روبرت: عناصر القصة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٨، ص ٢٣.
٥. ابن حميد رضا، الخطاب الشعري الحديث من اللغوي إلى التشكيل البصري، مجلة فصول، مج٥١، العدد ٢، صيف ١٩٩٦ م،القاهرة، ص ١٠٠.
٦. ديوان عنترة بن شداد، جمعه وقدم له مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٢م، ص١٨٣.
٧. ديوان المثقب العبدي، ص
٨. داوود سلوم: قصص الحيوان في الأدب العربي القديم، دار الرشيد، العراق، دط، ١٩٧٩، ص ٩ .
٩. الرواية ص ٤٢.
١٠. الرواية ص ٤٣.
١١. الرواية، ص ٤٥.
١٢.الرواية، ص ١١–١٢.
١٣. الرواية ص ١٣.
١٤. الرواية ص ٥١.
١٥. الرواية ً،ص ٥٢.
١٦. الرواية ص ٥٥.
١٧. الرواية ً، ص ١٠٩.
١٨. الرواية ص ١٣٨–١٣٩.
١٩. الرواية ص ١١٧–١١٨.
٢٠. الرواية ص ١٤١.

٢١. الرواية ص ١٤٤.
٢٢. الرواية ص ١٤٥.
٢٣. الرواية ص ١٥٢.
٢٤. الرواية، ص ٢٣.
٢٥. الرواية، ص ٢٣.
٢٦. مينة، حنا، الشخصية وتمثلاتها في رواية (بقايا صور) م.م . أوراس سلمان كعيد السلامي، مجلة كلية التربية والإنسانية / جامعة بابل، حزيران ٢٠١٧، العدد ٣٣.ص ٧.
٢٧. الكساسبة، عبدالله مسلم: سليمان القوابعة وتجربته الروائية، رسالة دكتوراة، إشراف عباس محجوب، كلية الآداب، جامعة النيلين، الخرطوم، ٢٠٠١، ص ٧١.
٢٨. صالح، صلاح: سرديات الرواية العربية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ص ١٧١.
٢٩. النصير، ١٩٨٦ النصير، ياسين (١٩٨٦)، إشكالية المكان في النص الأدبي، بغداد: دار الشؤون الثقافية، ص ٨..
٣٠. بورنوف، و أويلي،٢٠٠٢ بورنوف، رولان، وأويلي، ريال (٢٠٠٢)، "معضلات الفضاء"، في كتاب الفضاء الروائي، تأليف مجموعة من الباحثين، ترجمة عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء، بيروت: افريقيا الشرق، ص ٨٨
٣١. يقطين، سعيد: الرواية والتراث السردي من أجل وعي جديد بالتراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٢، ص ٦٧.
٣٢.الفيصل، سمر روحي: بناء الشخصية الروائية، الموقف الأدبي، دمشق ع٣٤٥، ٢٠٠٠، ص ٦٧.
٣٣. إدريس الناقوري: ضحك كالبكاء، دار الشئون والثقافة العامة، ط١،بغداد ١٩٨٦م، ص٢١٧.
٣٤. الرواية ص ١٢.
٣٥. الرواية ص ١٤.
٣٦.الرواية، ص ٣٥.
٣٧.عناني، محمد زكريا:الاغتراب في رواية محمود حنفي، مجلة فصول مصرية، ع ٢، ١٩٩٣، ص ٣٢٥.
٣٨. الرواية ص ٩.
٣٩. الرواية ن ص ٢٥.
٤٠. الرواية ص ٦٤-٦٥.
٤١. الرواية ص ٦٧-٦٨.
٤٢. الرواية، ص ٥٩.
٤٣. الرواية، ص ٧١.
٤٤. الرواية ص ١١٥.
٤٥. الرواية، ص ٤٩.
٤٦. الرواية، ص ٤٩.
٤٧. الرواية ص ٢٧-٢٨.
٤٨. الرواية، ص٢٧.
٤٩. الرواية، ص ١١٨-١١٩.
٥٠. مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٩م، ص٢١٠.
٥١. الرواية، ص ١٢٩.
٥٢. الرواية ص ١٢٩.
٥٣. الرواية، ص ١٠٢-١٠٣.
٥٤. الرواية، ص ٨٠.
٥٥. الرواية، ص ٨٦.
٥٦. الرواية ص ٨٧.

٥٧. سعد عبدالحسين العتابي: البنية السردية في روايات عبدالرحمن مجيد الربيعي، رسالة ماجستير، كلية التربية–الجامعة المستنصرية، إشراف: خالد علي مصطفى،١٩٩٤م، ص٤٤.
٥٨. الرواية ص ٩٦.
٥٩. محمد صابر عبيد:المغامرة الجمالية للنص الروائي، عالم الكتب الحديث، اربد، عمان٢٠١٠، ط١، ص٨٥.
٦٠. الرواية، ص ٤١.
٦١. الرواية، ص ٣٧–٣٨.
٦٢. الرواية،ص ١٢٩.
٦٣. مرتاض، عبدالملك: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، ص ١٣٣.
٦٤. الرواية ص٢٩.
٦٥. ص٩٠، الرواية.
٦٦. الرواية، ص ٩٩.
٦٧. الرواية، ص ١٠٧.
٦٨. الماضي،شكري:فنون النثر العربي الحديث، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٠.
٦٩. الرواية ص ١٢٩–١٣٠.
٧٠. الرواية، ص ١٣٠.
٧١. الرواية، ص٦٤ .
٧٢. الرواية، ص ٨٧.
٧٣. الرواية، ص ٩٤–٩٥.
٧٤. الرواية ص ٥٢.
٧٥. الرواية، ص ٥٢.
٧٦. الرواية، ص ١١٨.

المصادر والمراجع:

أولا المصادر:

١. السنعوسي، سعود: "ناقة صالحة"، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط٢، بيروت ٢٠١٩.
٢. إبراهيم،أنيس ورفاقه: المعجم الوسيط،ج١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٧٢م، مادة شخص .
٣. ديوان عنترة بن شداد، جمعه وقدم له مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٢م.

ثانيا المراجع:

١. النصير، ١٩٨٦ النصير، ياسين (١٩٨٦)، إشكالية المكان في النص الأدبي، بغداد: دار الشؤون الثقافية. .
٢. بورنوف، و أويلي،٢٠٠٢ بورنوف، رولان، وأويلي، ريال (٢٠٠٢)، "معضلات الفضاء"، في كتاب الفضاء الروائي، تأليف مجموعة من الباحثين، ترجمة عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء، بيروت: افريقيا الشرق.
٣. صبرة: البنية الروائية في يموتون غرباء، لمحمد عبد الوالي.
٤. عزام،محمد: البطل الروائي، الموقف الأدبي، دمشق، ع ٣٤٦.
٥. شولز، روبرت: عناصر القصة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٨.
٦. داوود سلوم: قصص الحيوان في الأدب العربي القديم، دار الرشيد، العراق، دط، ١٩٧٩ .
٧. صالح، صلاح: سرديات الرواية العربية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
٨. يقطين، سعيد: الرواية والتراث السردي من أجل وعي جديد بالتراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٢.
٩.الفيصل، سمر روحي: بناء الشخصية الروائية، الموقف الأدبي، دمشق ع٣٤٥، ٢٠٠٠.
١٠. الناقوري إدريس : ضحك كالبكاء، دار الشئون والثقافة العامة، ط١،بغداد ١٩٨٦م.

١١. حجازي مصطفى: التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٩م.
١٢. محمد صابر عبيد:المغامرة الجمالية للنص الروائي، عالم الكتب الحديث، اربد، عمان٢٠١٠، ط١.
١٣. مرتاض، عبدالملك: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط).
١٤. الماضي،شكري:فنون النثر العربي الحديث، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ط١، ١٩٩٦م.

المجلات:

١. ابن حميد رضا، الخطاب الشعري الحديث من اللغوي إلى التشكيل البصري، مجلة فصول، مج٥١، العدد ٢، صيف ١٩٩٦ م،القاهرة.
٢.عناني، محمد زكريا:الاغتراب في رواية محمود حنفي، مجلة فصول مصرية، ع ٢، ١٩٩٣.
٣. مينة، حنا، الشخصية وتمثلاتها في رواية (بقايا صور) م.م . أوراس سلمان كعيد السلامي، مجلة كلية التربية والإنسانية / جامعة بابل، حزيران ٢٠١٧، العدد ٣٣.

الرسائل:

١. الكساسبة، عبدالله مسلم: سليمان القوابعة وتجربته الروائية، رسالة دكتوراة، إشراف عباس محجوب، كلية الآداب، جامعة النيلين، الخرطوم، ٢٠٠١.
٢. سعد عبدالحسين العتابي: البنية السردية في روايات عبدالرحمن مجيد الربيعي، رسالة ماجستير، كلية التربية–الجامعة المستنصرية، إشراف: خالد علي مصطفى،١٩٩٤م.